عودة على طريق العودة

عودة على طريق العودة
د. يوسف عراقي

عن المؤلف:

من مواليد حيفا 1945، لجأت عائلته إلى لبنان عام 1948. أنهى دراسته الثانوية في بيروت عام 1966، تخرّج طبيبًا من موسكو عام 1974 عاد إلى لبنان صيف 1975 حيث عمل طبيبًا في مستشفى مخيم تل الزعتر في فترة حصار المخيم من عام 1975–1976.
أنتخب عضوًا في المكتب التنفيذي للهلال الأحمر الفلسطيني بين عامي 1976–1980.
سافر بعدها إلى ألمانيا وأنهى تخصصاً في جراحة المسالك البولية عام 1985.
يحمل شهادة دكتوراة من جامعة هومبولدت في برلين عام 1986.
هاجر إلى مملكة النرويج عام 1988.
عمل في عدد من مستشقياتها. مارس التدريس الجامعي في كلية الطب بجامعة أوسلو. قبل الممارسة في عيادته الخاصة في أوسلو حتى كانون أول 2012. متقاعد منذ عام 2013.
يمارس هواية الفن التشكيلي له حوالي 35 لوحة.

من مؤلفاته كتاب:
يوميات طبيب في تل الزعتر.

مقدّمة

لم أذكر تمامًا متى كانت بداية الوعي الذاتي لديّ!. كان من الصعب تحديد الزمان، لعلّه في السنة الرابعة من عمري! كانت الباب الذي ولجت منه لدخول العالم في تلك البيئة التي شهدت طفولتي الأولى. كانت في إحدى الأحياء المتواضعة في بيروت حيث تجمع خليطٌ من فقراء الجنوب اللبنانيّ الساعين وراء لقمة العيش، من الأرمن الناجين من المجازر في تركيّا مطلع القرن الماضي ومجموعة كبيرة من اللاجئين الفلسطينيّين ممّن سحقتهم النكبة الأولى فتاهوا في بقاع الأرض، حطّوا رحالهم خارج عالم المخيّمات المعهودة. كان جلّهم من قرى ومدن الجليل بأكثريّة من قرية عمقا وبعض ممّن جاؤا من حيفا ويافا واللد. وكما قيل يومها «كلّها أيّام وتنتهي المعارك العسكريّة بين جيش الانقاذ والعصابات الصهيونيّة ونعود بعدها إلى ديارنا». كان كلّ ما نملكه هو ما علينا من ثياب، بعض الأمتعة وبعض من نقود. تولّى الصليب الأحمر مساعدتنا في البداية، قبل ان تبدأ وكالة الغوث عملها في مساعدة اللاجئين الفلسطينيّين. عرفت يومها ما معنى كلمة الإعاشة والبقجة.

كانت مدرستي الاولى مع أقراني الفلسطينيّين من مختلف الاعمار تحت شجرة «البُطم» العتيدة في بيت الاستاذ «أحمد الشريف» اللاجئ من قرية «صفوريّة». بالرغم من الفوائد الكثيرة لهذا الشجرة إلّا أنّها كانت مصدرًا للقضيب الذي كان يلهب أكفّنا بلسعاته الموجعة كوسيلة عقابيّة. كان ذلك في منطقة الخضر التي سُمِّيّت نسبة لمقام الخضر عليه السلام القريب وعلى بعد خطوات من بيت أستاذنا وعلى بعد حوالي مائة متر كانت هناك كنيسة الأرمن. ومن الجهة الاخرى كانت محطّة السكك الحديديّة التي تصل بيروت بسوريا. هكذا كانت معرفتي الأولى بصفّارة القطار وصرير مكابحه، وصوت جرس الكنيسة وصوت الآذان حيث كان الأستاذ أحمد كثيرًا ما يرفع الآذان بنفسه. تعلّمنا علي يدي هذا المعلّم النبيل كيف نمسك بالقلم وكيف نكتب الحروف الاولى وكيف نقرأ الكلمات وكيف تكون مخارج الحروف وتلاوة القرآن الكريم.

كان العدد الكبير من طلّاب العلم من أبناء اللاجئين أكبر من أن تستوعبه «مدرسة الاستاذ أحمد الشريف». فقامت مع مجموعة من أهالي الطلاب بالاتّصال بوكالة الغوث من أجل إنشاء مدرسة. وهكذا كانت مدرستي الأولى بالصفوف المنتظمة حسب الاعمار «مدرسة نهر المقطع». لن أنسى الأيام الأولى، حيث كانت هناك صفوف ولم تكن بعد مجهّزة بالمقاعد وكيف أنّ الطلاب من قرية عمقا كانوا قد أحضروا معهم «سحاحير» الخضار الخشبيّة الفارغة إلّا من بقايا أوراق التين والعنب وبعض الخضار ليجلسوا عليها- معظم أهاليهم كانوا يعملون في بيع الخضار- كان منظر الصف والصناديق الخشبيّة وأوراق التين والعنب المبعثرة عصيًا على النسيان.

هكذا بدأت رحلتي مع العلم التي كانت هاجس أهالي وأبناء اللاجئين رحلة تخلّلها الكثير من المعاناة والكدّ والعمل في العطل المدرسيّة. كنّا نعيش عصر المذياع، لم يكن «التلفزيون» قد وجد طريقه بعد، ولذلك لم يكن سحر الصورة قد انطبع في ذاكرتنا. كان المذياع حاضرًا في بيتنا منذ قبل النكبة لشدّة ولع والدي بسماع الأخبار عما يجري في هذا العالم.

كانت صورة الوطن في مخيّلتي أشبه بالفردوس البعيد المنال والذي لم أره ولو أنّني ولدت فوق ترابه، كانت صورته نتاج ما سمعته من الأهل ومن أحاديث الوالد مع أصدقائه حين يأتون لزيارتنا وما أكثرها. الحديث دائماً كان محوره «البلاد». كانوا يعيشون على ذكريات الماضي لينسوا معاناتهم. كان عنصر المقارنة بين ما كان وما هم عليه هو السائد في أحاديثهم.

كانت ساحة «الفاخورة» القريبة من بيتنا لصاحبها «المعلم سمعان» هي ملعب طفولتنا وتبادل أحاديثنا حول الوطن والعودة، كان خيالنا يحلَق بعيدًا وأنّ الباصات ستأتي قريبًا وتنقلنا إلى الوطن، كما كانت أحاديثنا مع صديق طفولتي «خير» ابن قرية عمقا ونحن في نزهاتنا المسائيّة على الطريق المحاذي لشاطىء البحر وحين ننظر إلى تلك السفن المسافرة ونتسائل ما وراء ذلك الافق البعيد من أسرار؟، كانت أحاديثنا تدور حول أحلام المستقبل بعد أن كاد الامل بالعودة من شدّة المعاناة ومصاعب الحياة. كان علينا ان نتصالح مع أنفسنا مرّات عديدة.

بدأ منسوب الوعي يرتفع شيئًا فشيئًا من خلال الاحتفال بالمناسبات الوطنيّة في المدرسة ومن خلال المسرحيّات الوطنيّة والأناشيد الحماسيّة التي كنّا نحفظها

عن ظاهر قلب والتي كانت تدور حول الوطن والعودة. لم يكن يغِب عن بالي كيف كان مدير المدرسة «ايليّا عبود» ابن عكّا وهو يأتي إلى المدرسة على درّاجته الهوائيّة التي تحمل لوحة كُتِب عليها «بلديّة عكا» بالاضافة لرقم الدراجة، كان ذلك مثيرًا للشجون والتساؤل هل قطع المسافة من عكّا إلى بيروت على هذه الدرّاجة؟.

كنّا نعيش مرحلة النهوض القوميّ وخطابات الزعيم عبد الناصر تُلهب حماس الجماهير في كلّ الوطن العربيّ، كلّ ذلك كان يقرّبنا من الحلم الكبير، حلم العودة. كانت الثورة الجزائريّة مصدر أمل وإلهام والذي تعزّزَ بعد تأسيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة. كلّ هذا نفخ رياحًا قويّة في شراع أحلامنا وكان شوقنا كبير لنلامس جسد الحلم لنتأكّد من قرب العودة، ذلك الحلم الذي ما لبث أن تبدّد مع هزيمة 1967 التي أطاحت بأحلامنا وهَشّمت آمالنا. كنت قد أنهيت دراستي في المرحلة الثانويّة يوم سمعت للمرّة الأولى عن بزوغ فجر المقاومة الفلسطينيّة المسلّحة التي عادت لتبثّ بي الأمل من جديد، ولكنّها كسفينة وسط بحر هائج تتقاذفها أمواج عاتية من كل جانب. لم يتمكن الربّان من قيادة السفينة بسهولة لكثرة الأيدي التي كانت تحاول استلام الدفّة وقيادتها ناهيك عن غياب المعرفة في استعمال البوصلة، كان الحماس منقطع النظير بين الشباب الفلسطينيّ والعربيّ للالتحاق بالمقاومة التي كانت سِرّية في ذلك الوقت في لبنان حيث التحقت بها، ولكنّي ما لبثت أن حزمت حقائبي للسفر لمتابعة دراستي الجامعيّة بعد أن حصلت على منحة دراسيّة من منظّمة التحرير الفلسطينيّة. لن أتحدّث عن تفاصيل أيّام الدراسة الجامعيّة ولكنّها كانت حافلة بالعمل التنظيميّ والطلابيّ الدؤوب الذي أخذ منّي بنفس القدر الذي كان يضيفه إليّ حلم العودة.

مّرة أخرى تنقَضّ حربٌ جديدة على الحلم في عام 1973. كان الولوج في زواريب السياسة الملتوية وما تبعها من تداعيات وضياع البوصلة ما جعل الايّام تقضم حلم العودة شيئًا فشيئًا. كان مشهد خروج مقاتلي منظّمة التحرير من بيروت بعد معارك بطوليّة ضد الغزو «الاسرائيليّ» من أكثر المشاهد سورياليةً في تاريخنا المعاصر، كان وداعًا مشحونًا بالمشاعر المؤلمة. لقد ذرفنا الدموع ونحن نشاهد السفن تحمل المقاتلين والقادة إلى المجهول. هكذا بعد أن كان المنفى على رمية حجر من الوطن، قذفتنا الامواج العاتية إلى منفى آخر في سقف الكرة

الارضيّة حيث الرياح الشماليّة الباردة تصفعنا وتذكّرنا دائمًا أنّ هناك وطن في جوفه ترقد عظام الأجداد وعلى أرضه ينبت الزعتر والزيتون، يحرسه أهلنا الذين انزرعوا في أرضه وضربوا جذورهم عميقًا.

جاءت الانتفاضة الأولى ليتدفّق الدم الحارّ مجدّدًا في شرايين شعبنا على أيدي أطفال الحجارة، وبدأت صورة «إسرائيل» ملطّخة بدماء أطفال فلسطين رسالة مدوّية للعالم حيث العين قاومت المخرز وتشوّهت وبدأت صورة الكيان «الأخلاقية» بالتآكل، وكان الاتفاق الذي أوقف الانتفاضة وانتزع الأمل مجدّدًا من نفوس أكثريّة شعبنا.

شعرت أنّه كلّما ابتعدنا عن الوطن كلّما زاد الحنين. كانت الافكار تتوارد في الذاكرة كأمواج متلاحقة، تحملني بأجنحتها إلى هناك ولم يكن يخطر ببالي يومًا بعد أن اصبحت هنا في سقف العالم، أنّني سأعود إلى الوطن ولو كانت عودة مؤقّتة! كان ذلك للمرّة الأولى عام 2000 حينما قابلت الوطن للمرّة الأولى، ولكنّها لم تكن بمستوى ما أحمل من مشاعر، كانت نار اتفاقية أوسلو ما زالت حامية وكان حلم العودة قد خبى وذهبت ريحه، كانت الزيارة تلبية دعوة لحضور إحتفال الهلال الأحمر الفلسطينيّ بذكرى تأسيسه في غزة، لقد زادت قناعاتي السابقة بعد تلك الزيارة كما ازداد إحباطي نتيجة ما شاهدت وعايشت، شعرت بأنّ لا مكان لي هنا وأحسست بأنّني أنتمي إلى الفئة التي أصبحت خارج المكان، وازداد قلقي على تلك الجموع المنسيّة في مخيّمات الشتات والتي دفعت أغلى الأثمان وأنّها لم تكن إلّا وقودًا. لم تكن الانتفاضة الثانية في أيلول 2000 أوفر حظًا من الاولى.

16 عشر عامًا بعد زيارتي الأولى كانت شبه خالية من أحلام العودة، وأصبح الوطن قصّة تتداخل فيها الأحلام والحنين والتراجيديا، وأنا أرويها لأبنائي الذين زاروا الوطن وعرفوه. كنت خلال هذه السنين كمن يجلس على ضفّة نهر تارة يستذكر الماضي وطورًا أنظر في اندفاع مياه النهر وأفكّر أنّه بقدر ما أقوم به من عمل مع مرضاي وتلامذتي وما أزرعه في بناتي وابني من حبّ للمعرفة، ولأنّهم يمثّلون الغد الواعد فإنّه يحقّق بعضًا من أحلامي.

لم يرد بخاطري أنّ مخيّم تلّ الزعتر سيأخذني من جديد إلى الوطن. هذه المرّة لم تكن كغيرها، كانت رحلة تزخر بالمشاعر المتدفّقة والممزوجة بالحنين

والمتعطّشة للعودة إلى أصل وجودي في هذه الحياة. كنت أشعر أنّني أحمل معي عبأ مسؤوليّة كبيرة، أزور الوطن هذه المرّة برفقة تلّ الزعتر ولهذا أخذت هذه الزيارة بُعدًا وجدانيًا، تعَرّفت من خلالها على أجمل ما في الوطن؛ على أهله الطّيبين الذين تركوا فيَ أبلغ الأثر ورأيت من واجبي أن أكتب عن هذه الرحلة التي كانت بالنسبة لي كعودة الروح إلى الجسد.

د. يوسف عراقي –النرويج
خريف 2018

الحلقة الأولى:

رحلتي إلى الوطن

رحلتي إلى الوطن

كنت في زيارة إلى بيروت في ربيع عام 2015، حينها كنت أفكّر في إصدار الطبعة الثالثة من كتابي «يوميات طبيب في تلّ الزعتر»، عندما وصلتني رسالة بالبريد الإلكتروني من الصديق العزيز في حيفا الدكتور جوني منصور، وفيها يخبرني أنّه بعد التشاور مع بعض أصدقائي هناك في مدينة حيفا، عن فكرة إصدار الطبعة الثالثة في الوطن، وذلك في الذكرى الأربعين لمجزرة «مخيّم تلّ الزعتر». رحّبت بالفكرة ووجدتها فكرة رائعة برمزيّتها على الصعيد الخاصّ والعامّ: حيفا بالنسبة لي هي مسقط رأسي وهي الهواء الذي أستنشقته لأول مرّة، وعلى الصعيد العامّ ما أجمل أن يحتضن الوطن مخيّم جليليّ في ذكراه الأربعين. هكذا بدأت الفكرة وبدأنا تبادل الرسائل والآراء حتّى أصبح كل شيئ جاهزًا، بعدها جاءت الفكرة الثانية وهي إشهار الكتاب وتوقيعه في أُمسية في «نادي حيفا الثقافي»، وتحدّد لذلك موعد في شهر أيلول، ولكن بسبب إرتباطاتي هنا، تأجّل الموعد إلى العشرين من تشرين الاول 2016. وحين حان موعد الرحيل إلى أرض الوطن، أصرّ الصديق عزيز خضر ابن حيفا والمقيم في النرويج على مرافقتي في هذه الرحلة وإستاضفني في بيته في حيّ «الهدار» الحيفاويّ طول فترة إقامتي. منذ أن حُدّد موعد السفر سيطرت على مشاعري فكرة اللقاء بالوطن، ومع حيفا بالذات، كيف سيكون وقعها على مشاعري المتدفّقة والمشتاقة لرؤياها؟

كانت الرحلة الطويلة بين أوسلو والوطن - بعد توقّف في إسطمبول - قد إستغرقت طوال الليل، كنت خلالها أتصفّح الذاكرة حاملًا في وجداني ومشاعري هموم المخيّم وأهله الطيّبين، وهل هناك بعد أربعين عامًا من يتذكّر مخيّم تلّ الزعتر؟ وماذا جرى في ذلك الصيف الداميّ من عام 1976؟. بعد أن عبرنا حدود العتمة التي تُميز أقصى شمال الكرة الارضيّة في هذه الأيام عن جنوبها، غادرت تلك الغيوم السوداء مواقعها، لتفصح عن سماءٍ صافية الأديم، وكمّ

هائل من الكواكب والنجوم المتلألئة ترصِّع السماء، تتماهى مع أضواءٍ خافتة تظهر في الأفق البعيد... أحسستُ بعدها بقشعريرة تسري في كاملِ جسدي لتُسيطر على كل مشاعري وخفق قلبي سريعًا كحصان يعدو في سباقٍ محموم، إنّه الشاطئ الفلسطينيّ، يغطّي الأفق وله إنحناءة حدّ السيف العربيّ، كأنّه حدود الكون بالنسبة لي، كانت الأنوار الخافتة والبعيدة تقترب شيئًا فشيئًا... نعم، إنّها قشعريرة العاشق المُشتاق... والتي أنستني هبوط الطائرة في مطار اللد على أرض الوطن، عبرنا إلى حيث مراقبة الجوازات وخاطبتني ضابطة الجوازات الشابّة باللغة العبريّة، نظرت إليّ باستهجان عندما أخبرتها أنّني لا أجيد العبريّة، مشيرة إلى «حيفا» مكان ولادتي في جواز السفر.

لم تُدقّق في تاريخ ميلادي الذي سبق النكبة بثلاث سنوات، وتلك قصّة أُخرى. غادرنا عزيز وأنا أرض المطار، بعد إجراءات الدخول حيث كان في استقبالنا وإنتظارنا شابان رائعان (من أقارب عليا زوجة عزيز)، إنفرجت أساريرهما عند رؤيتنا، قادنا سعيد بسيارته إلى حيفا، كان ذلك في حدود الرابعة والنصف فجرًا عندما غادرنا المطار، متّجهين شمالًا، لم يكن طقسًا خريفيًّاً كما توقّعت، بل كانت فيه حرارة الصيف، نظرت إلى سماء الوطن وإذ بها صافية الأديم، نجومها تضفي على تلك الليلة جمال المشهد الذي أحمله في مخيّلتي عن وطن حُرمت منه طوال سنيّ عمري، أحسست أنّ الطفل الساكن في داخلي قد أفاق من سُباتِه العميق، أتلَفّتُ حولي بلهفة المشتاق بنهَم لمشاهدة كلّ ما هو حولي، أريد معرفة كلّ التفاصيل عن تلك الاشياء التي كنتً أشعر أنّها تُرحّب بي وتحيّيني من خلال نافذة السيارة، كلّ ذلك بفضولٍ كبير أثار دهشة عزيز الذي كان مرهقاً من عناء السفر محاولًا أن يغفو قليلاً في المقعد الخلفيّ، لكن أسئلتي المتلاحقة عن أسماء المناطق التي نمّر بها، جعلت عزيز يقوم بدور الدليل السياحيّ الذي يستغرق في تفاصيل شرحه عن الأماكن. وها هو يقول لي أنّنا على مشارف حيفا، كانت خيوط الفجر الأولى قد بدأت ترسم ملامح ذلك الصباح الرائع ومخاض ذلك اليوم والذي أشعرني بأنّي أولد معه من جديد، لحظات لا تُنسى، ترسم جمال الصورة بدقّة متناهية، كأنّ الجسد يحتفي بعودة الروح. إستقرّ بي المقام في بيت عزيز في الهَدار لعلّه المكان المناسب للقاء حيفا. كانت شمس ذلك الصباح تخرج باستحياء من وراء ذلك الشفق الأرجوانيّ، ومن على شرفة المنزل المُطلّ

على وادي الصليب وبحر حيفا، إرتسمت أمامي لوحة سيرياليّة لهذه المدينة التي أعشق، لا داعي للتخيّل وإستحضار الذاكرة.... حيفا أمامي تحتضنني وتلفّني بذراعيها بحرارة الأمّ الحنون تستقبل إبنها العائد بعد طول غياب... وأمام ذلك المشهد الذي أشاح بوجهه عن تعب السفر والنعاس... جلست على شرفة المنزل خاشعًا مستغرقًا في تلك اللحظة التي لطالما إنتظرت، لحظة إختلاط الحلم بالواقع سمعت حيفا تهمس في أذني قائلةً: أنت منذ الآن أنت... كما قالت من قبل للراحل الشاعر محمود درويش.

الحلقة الثانية:

في حضرة حيفا

في حضرة حيفا

جلست صامتًا على شرفة المنزل، بعد أن تملّكتني رعشة الأشواق الوجدانيّة، غارقًا في تفكيري وأحلامي وبحر حيفا أمامي يخاطبني معاتبًا، يسألني عن رحلة التيه التي طالت ولم تنتهي بعد في تلك المنافي الباردة والبعيدة!... كيف أصبحت طريدًا، يتشوّق لمسقط رأسه وتراب وطنه... كما لو أنّه لا وطن لي إلّا وطن أبنائي وأحفادي في البلاد القابعة خلف تلك البحار البعيدة. إنّ كلّ ما سيطرأ عليَ بعد الآن سيكون نتيجة لتفاعل الذات مع الوطن، ببحره وبرّه وتحديدًا مع حيفا ببحرها وكرملها وأهلها الطيّبين. لقد تبخَر النعاس وتوهّجت في ذهني تصوراتُ جامحة لما سيكون عليه لقائي مع الوطن، أمّا عزيز فغطَ في نوم عميق، أسمع بعضًا من تداعياته. حاولت بدوري أن آخذ قسطًا من الراحة، إلّا أنّ جمال اللحظة وروعتها... وحواري المتواصل مع بحر حيفا وعيناه بنظراته الغريبة، فيها الكثير من العتاب على طول هذا الغياب القسريّ، جعلني مضطربًا ومذهولًا بعض الشيء!. لم يُخرجني من تلك الحالة الوجدانيّة إلّا رنين الهاتف، وعلى الطرف ألاخر الصديق فيكتور مطر، يتّصل مهنّئًا بسلامة الوصول، ودعَوة مبكّرة لفطور حيفاويّ في منزله، بعد أن نأخذ قسطًا من الراحة. فيكتور صديق قديم تعرَفت عليه وعلى زوجته العزيزة نهى منذ سنوات، خلال زيارتي الأولى للوطن قبل 16 عامًا، وهو محام بارع ويدير مكتبًا للمحاماة في حيفا. لقد أعدّت لنا زوجته العزيزة نهى فطورًا فلسطينيًّا بامتياز على شرفة المنزل في شارع «غولومب» في حيّ «كرم العجم»، كانت الهندباء حاضرة على المائدة إلى جانب الزعتر البلديّ وزيت الزيتون الكنّاوي، ومن على تلك الشرفة لمحت البحر بتموّجه الهادئ يحدّق بي مُجدّدًا من بعيد، ولكن هذه المرّة يُشاطرني اللحظات السعيدة بلقاء الأصدقاء. ومن محاسن الصدف في ذلك اليوم، أنّ نادي حيفا الثقافي نظّم جولة معرفيّة للتعرّف على تاريخ المدينة وما تبقّى من معالم حيفا القديمة برفقة الصديق د. جوني منصور مؤرّخ حيفا وذلك في الساعة الرابعة بعد ظهر

هذا اليوم، والإنطلاق سيكون من ساحة الحناطير، التي طالما ما سمعت عنها في طفولتي من حكايات ألأستاذ «إلياس العسل» - في المرحلة الابتدائيّة- المتكرّرة والمشوّقة عن ساحة الحناطير وما كان يحدث بها في ذلك الوقت من قصص وحكايا. كانت فرصة لا تُعوّض للمشاركة في هذه الجولة. في ذلك اليوم المُشمس الجميل، أوّل أيّامي في حيفا وخاصة كما قال د. جوني لاحقاً عن هدف الجولة: هو تعزيز المعرفة بمدينتنا حيفا، وتعزيز علاقة الإنسان بالمكان، وكيف نعيش المكان بالذاكرة. كانت جولة غنيّة بالمعلومات حول تاريخ حيفا قدّمها لنا د. جوني بمهنيّة عالية وسرد مشوّق ورائع، سنحت لي الفرصة بالتعرّف على مجموعة من الأصدقاء: كالاستاذ فؤاد نقّارة، رئيس النادي، الذي كان خلال الجولة شعلة من النشاط، موثّقًا الجولة بالصوت والصورة، وكذلك زوجته سوزي والأعزّاء الاستاذ حسن عبادي المحامي ومن مؤسّسي النادي والعزيزة سميرة زوجته التي كانت تُحدّثني طوال الجولة عن عشقها وتعلّقها بحيفا.

كانت شروح الدكتور جوني طوال الجولة تزخر بالمعلومات التاريخيّة وهو الذي ألّف كُتبًا كثيرة عن حيفا أخرها الكتاب الموسوعة: «حيفا الكلمة التي صارت مدينة». حدّثنا عن أصل التسمية لمدينة حيفا: أسماء كثيرة تعود إلى اللغة الآراميّة منها «شيكمونا» ومعناها الجمّيز (شارع الأنبياء مليء بأشجار الجمّيز)، وإنّ بداية المدينة كانت من الجهة الغربيّة من تل السمك. وكانت عبارة عن حارتين: حارة للفقراء وحارة للميسورين.

حدثَنا عن المغاور التي سكنها الانسان القديم. قام بشرح تاريخيّ عن المدينة الجديدة التي بناها الشيخ ظاهر العمر بأسوارها الثلاثة، وكيف أنّ الألمان رفضوا العيش في المدينة داخل الأسوار، فبنوا خارج السور ما يُعرف اليوم بالألمانيّة. كانت المدينة تمتدّ من الحلّيصة لوادي الجمال. كان د. جوني قد زوّدنا خلال الجولة بخارطة لحيفا بأسماء شوارعها وحاراتها العربيّة قبل العام 1948 والأسماء العبريّة الحاليّة. تابعنا الجولة نحو الجامع الصغير وهو أوّل جامع بُني في حيفا على يد الشيخ ظاهر العمر، وكيفَ هُدم عام 48، وكيف جرى ترميمه لاحقًا على يد الحركة الاسلاميّة. من خلال شرحه عرفنا أنّه كان لحيفا بوابتان: البوّابة الغربيّة (بوابة يافا) والبوابّة الشرقيّة (بوابّة عكا)

والتي كانت مدخل حيفا التجاريّ، حيث كان النشاط الاقتصاديّ منفتحًا على «مرج بني عامر» مصحّحًا بذلك بدلًا للتسمية المعهودة «مرج ابن عامر». يقول الدكتور جوني أنّ الجاليات اليهوديّة بدأت الاستيطان على قمم الجبال: الجالية الاسطمبوليّة، الجالية المغربيّة والجالية الطبرانيّة في صفد للحاخام «أبو العافية». وقدَم لنا شرح مسهب وشيّق عن الحركة الثقافيّة والفنيّة والرياضيّة في حيفا حيث كان هناك: 76 جمعيّة أهليّة و 35 جريدة. إستأنفنا الجولة باتّجاه «جامع الاستقلال» الذي بُنّي عام 1924 خارج أسوار حيفا. وعن دور الشيخ عزّالدين القسّام إمام الجامع في إنطلاق الشرارة الاولى للثورة عام 36، ودوره في الوقوف إلى جانب الفقراء من عُمّال وفلّاحين ضد الظلم وإلاستغلال، ثورة اُجهِضت بالتدخلّات من قبل الأمراء والحكّام العرب في ذلك الوقت بطلب من «صديقتهم!!!» بريطانيا.

تابعنا الجولة إلى مَعلَم أخر من معالم حيفا: عامود فيصل، الذي تبرّع به أهالي حيفا عام 1934 تخليدًا لذكرى الملك فيصل الأوّل الذي توفي في سويسرا ونُقل جثمانه إلى حيفا ومنها نُقلَ بالطائرة إلى بغداد حيث دُفِن، وهو صاحب المقولة: «إنّ حريّة الشعوب تُؤخذ ولا تُعطى». من المُلفت أنّ الذي قام بنحت العامود ترك الجزء الأعلى منه مكسورًا، وذلك تعبيرًا عن أنّ الاستقلال لم يكتمل.

المعلَم الثالث: سكّة حديد الحجاز التي اُفتتحت عام 1908 نتيجة تعاون بين السلطان العثمانيّ والألمان، لفتح أبواب المشرق أمام الاقتصاد الألمانيّ: خطّ دمشق عمان وصولًا للمدينة المنوّرة. بعدها اُفتتِحَ الخطّ الساحليّ لتنشيط الاقتصاد في الداخل الفلسطينيّ. وفي عام 1918 بعد نهاية الحرب العالميّة الأولى، تمّ ربط الخطّ العثمانيّ مع الخطّ البريطانيّ القادم من مصر وهكذا ربطت حيفا القارّات الثلاث.

إستأنفنا الجولة بإتّجاه وادي الصليب... حيث المنظر الكئيب للبيوت المهجورة... والتي تدل بوضوح على أنّ من سكنها في جزئها العلويّ كان من العائلات العربيّة الميسورة، وفي جزئه الأسفل كان حيّا فقيرًا يسكنه العمّال لقربه من مصلحة السكك الحديديّة والميناء والمنطقة الصناعيّة.. وقفت أمام تلك البيوت بخشوع وتأثّر كبيرين، وشعرت أنها غايةّ في الحزن تبكي أهلها الذين هجروها قسرًا،

بيوت حجريّة ذات الطراز المعماري الجميل، تدلّ على أنّ من بناها... بناها لتصمد على مدى العصور، وتذكّرت ما قرأت يومًا عن ما قاله «البرت أينشتاين» خلال زيارته لفلسطين، عندما سار في شوارعها وشاهد البيوت الحجريّة ذات الطابع المعماريّ الجميل: «إنّ من بنى هذه البيوت هو شعبٌ حيّ، لن ينسى أرضه مهما طال به الزمن خارجها، ولا بدّ أن يعود إليها منتصرًا».

لقد كان منظر البيوت في وادي الصليب كئيبًا، وبات يشكَل رمزيّة خاصّة لما حدث في حيفا من تهجير وتشريد قسريّ في ربيع 1948، أمّا لماذا سُمّي وادي الصليب، فذلك بسبب تقاطع واديين على شكل صليب. يشهد الحيّ حاليّا عمليّة طمس لمعالمه العربيّة وذلك بهدم هذه البيوت الأثريّة التي تحمل هويّة الحَيّ العربيّة يرافقها حملة شرسة لتغيير أسماء شوارعه العربية.

كانت المحطّة الاخيرة في كنيسة الروم الكاثوليك التي بُنيت عام 1868 في عهد «الشيخ ظاهر العمر» على يد الحرفيّين الذين جاءوا من بلاد الشام. حدّثنا د. جوني عن المطران حجّار الذي سُمّي «بمطران العرب» والذي لعب دورًا كبيرًا خلال خدمته منذ 1926 وحتى وفاته عام 1940 بحادث دهس مشبوه. لقد بنى المدارس والكنائس في مدن كثيرة، ودُفن داخل الكنيسة تحت الهيكل. كانت الكنيسة قد أُغلقت عام 1948، ورُمِّمت واُفتتحت عام 1982، وحاليًا تقوم الكنيسة بدور إنسانيّ وإجتماعيّ من خلال «بيت النعمة» الذي يهتمّ بالسجناء المحرّرين «غير الأمنيّين». بهذا إنتهت هذه الجولة الغنَية بالمعلومات التاريخيّة عن مدينة حيفا والتي أخذت شكلًا دائريًا، بدأت في ساحة الحناطير، حارة الكنائس، حارة المساجد وإنتهت بهذه الكنيسة. في المساء جمعتنا مع الأصدقاء سهرة على شرفة منزل الصديق فيكتور وزوجته العزيزة نهى حيث تبادلنا إنطباعاتنا عن هذه الجولة الرائعة مع د. جوني وباقي الأصدقاء. تحدّثنا عن تاريخ، حاضر ومستقبل مدينتنا حيفا، كلّ ذلك حدث وبحر حيفا وأضواؤها تضفي على تلك الأمسية جوًا من الفرح الداخليّ وشعورًا لا يوصّف جعلني في متاهة الفصل بين الواقع والخيال... لينتهي بذلك أوّل أيّامي على أرض الوطن.

الحلقة الثالثة

بين سفوح الكرمل وأسوار عكّا

بين سفوح الكرمل وأسوار عكّا

مرّت الليلة الأولى في حيفا بكلّ تفاصيلها وأنا أتصفّح ذاكرتي عمّا كنتُ أتخيّله في سنوات الطفولة، ومن سماعي لحكايات عن حيفا بحرها وكرملها، وما أعيشه اليوم وأراه بأمّ العين، كانت الذاكرة تحاول أن تبني جسرًا وجدانيًا بين الماضي والحاضر. فقتُ صباحًا مثقل الجفون ولكنّ نسيم الصبح ذكرّني بأنّ هناك مهمّة عليّ القيام بها في هذا اليوم: الصعود إلى الكرمل تلبية لطلب من الصديق د. يوجين مخلوف ابن حيفا - وهو طبيب أسنان - عملنا سويًا في إتّحاد الاطبّاء الفلسطينيّين وفي الهلال الأحمر الفلسطينيّ في سبعينات القرن الماضي في بيروت -، ودبلوماسيّ متقاعد كان سفيرًا لفلسطين في العاصمة السويديّة استوكهولم - والذي لم ير حيفا منذ أن غادرها عام النكبة، أثقله الحنين لملاعب طفولته وصباه، إتّصل بي متمنيًا عليّ ان أصعد الكرمل وألتقط بعض الصور لأرض العائلة المحاذية لدير الراهبات الكرمليّات «الحبيسات»، وأمّا لماذا سمّينَ بالحبيسات فلأنهن قد نذرن أنفسهنّ للإقامة الدائمة في الدير تفرّغًا للخدمة والعبادة.

كان ذلك برفقة عزيز والاستاذ عادل ملشي، صديق قديم تربطني به علاقه تعود إلى عام 2000، حيث التقينا في الوطن والنرويج مرّات عديدة، كان لقاءً حارًا بعد مرور وقت طويل على لقائنا الأخير. لم يغيّر الزمن شيئاً من ملامحة ولهجته المحبّبة وصوته الجهوريّ المُميّز. مدير مدرسة «أورط الكرمل» الحيفاويّة، قادنا عادل في شوارع حيفا المتعرّجة صعودًا، والعامرة ببيوتها الحجريّة القديمة. طوال الطريق كنت غارقًا ومتاملاً بتفاصيل حجارتها العتيقة الصلبة وأقواس نوافذها وسقوفها القرميديّة، أبحث فيها عن أعشاش السنونو، فرحًا بما تراه عيناي من الحوانيت والمتاجر الكثيرة التي تتصدّرها يافطات عربيّة، تشهد على هويّة المكان. لقد طال إغترابي عنك أيّها الوطن. وها هو قلبي ينبض فرحًا لرؤيتك. إنّ لكلّ تفصيل هنا روحه ومعناه، يساورك الإحساس بأنّ كلّ شيئ

هنا يدنو منك مرحّبًا متحّببًا، وكأنّ الأشياء تواكبك متراقصة فرِحة. متنشّقًا بملئ رئتيّ هذا الهواء الكرمليّ النقيّ، وفي جوّ تشرينيّ لا يشبه تشرين الذي أعرفه، كلّ هذا جعلني أنسى سنوات الغربة الشماليّة بصقيعها القاسي وسمائها الرماديّة وتذكّرت الطيور في هجرتها الموسميّة من تلك الاصقاع البعيدة تنشد الدفئ في رحاب الجنوب.

وصلنا الدير ولكنّ السياج العازل قرب الدير لم يمكّننا من الوصول إلى الأرض المعهودة، الصنوبرات كُنّ هناك، يتكئن متعبات على سفح الكرمل كمسافر أنهكه التعب بعد سفر طويل. جلسنا نمتّع أعيننا بتلك السماء الصافية المنبسطة فوق رؤوسنا تمنحنا شيئًا من السكينة، ولكنّنا حُرمنا من رؤية البحر وزرقته من ذلك المكان. في مثل تلك اللحظات الرائعة يمرّ الوقت مهرولًا غير عابىء بأحد. وها هي الظهيرة المتوهّجة تتسلّل وتذكّرنا بمتابعة مشوارنا. كان علينا ان نكمل طريقنا إلى عكّا توأم حيفا، تلك المدينة الكنعانيّة الضاربة جذورها في التاريخ. عدّلت جلستي وفي نفسي رهبة من سيقابل التاريخ، وبدأت أعدّ نفسي لأكون ناضجًا ما فيه الكفاية لملاقاتها.

الطريق بين حيفا وعكا له خصوصيّة كبيرة في حياتي سأتحدث عنها فيما بعد.

توقّفنا في عكّا القديمة قريبًا من حي «الفاخورة» وتابعنا سيرنا في طريق مزدحم، يكتظّ بجموع من شابّات وشبّان في عمر الورود، صخب كبير وأصوات شابّة ولغة عربيّة تملىء الأجواء مرحًا، كانوا طلّابًا عربًا من بلدة طرعان، حدّثني عادل عن تقاليد السياحة الداخليّة بين المدن والبلدات العربيّة بهدف تشجيع وتنشيط الحركة الاقتصاديّة في الوسط العربيّ، إنّه عملٌ مثير للإعجاب. كانت الجلبة الصادرة عن هؤلاء الفتيات والفتية تضفي على المكان الكثير من الحيويّة والبهجة، لمسنا ذلك عندما غادروا المكان الذي عاد إلى هدوئه ورتابته، وأصبح باستطاعتنا سماع هدير الأمواج وهي ترتطم بالسور العتيق في ذلك الحوار الأبديّ، وطيور النورس تحوم فوق الصخور المتناثرة في البحر كجزر صغيره، وقد جلس على إحداها صيادٌ عكيّ، ذكّرتني جلسته المنحنية إلى الأمام بتمثال «حورية البحر الصغيرة» المشهورة في العاصمة الدنماركية «كوبنهاجن». ها هو مقهى الفنار وعند مدخله خارطة كبيرة لفلسطين التاريخيّة ترحّب بنا، شعرت

معها كم هي عميقة في وجدان شعبنا هويّته الفلسطينيّة. كان هناك لقاء عابر مع الفنّان التشكيليّ الرائع العكّاوي وليد قشاش الذي حدّثنا عن مفهومة للفنّ، عن أعماله الملتزمة والمنتشرة عند مدخل عكا، وعن النصب التذكاريّ الكبير للشهداء في عرّابة البطّوف. كما حدّثنا الفنّان خير فودة عن فرقته الشعبية للغناء «ولّعت» ودورها في إحياء التراث الغنائيّ الشعبيّ في المدينة. كنّا قد إتّفقنا على اللقاء ثانية في عكا للقيام بجولة لمعالم المدينة، وكم كنت متشوّقًا لهذا، ولكن ضيق الوقت حال دون ذلك. تأمّلت كثيراً بأسوار المدينة وكم مرّ عليها من غزوات عبر التاريخ. لقد ذكرتَني هذه الامواج المتلاطمة بكورنيش المنارة في بيروت حيث الأمواج هي هي تتحدّث نفس اللغة، وأخذتني بعيدًا إلى صيدا.. وحاراتها وأسواقها القديمة، حيث التشابه الكبير حتى تخال نفسك هناك. أتسائل عن عمق العلاقة الأزليّة والوجدانيّة، عن ذلك الجدار الزائف الذي ألغى جسور التواصل مع الجوار، الذي حال ما بين عكّا وأهلها القابعين في مخيمات الشّتات، يسكنهم حلم العودة، ويحسدون الطيور المهاجرة والأسماك العابرة، على ما يتمتّعون به من فائض الحريّة والتي حُرموا منها، وعلى تلك الأمواج المتنقّلة بين قلعة صيدا وأسوار عكّا دون حسيب ولا رقيب.

لقد أثار إعجابي من تمسّكَ بالأرض وبالبقاء عليها محافظًا على هويّتها، وأنّ علينا أن نعترف أمام أبنائنا وأحفادنا عن ذنبٍ إرتكبه أباؤنا بنزوحهم عن هذا الوطن، وبغير ذلك لا يمكن ان نتصالح مع ماضينا، ولو ان لذلك أسبابة القسريّة في ذلك الحين. أينما ذهبت هنا رأيت أناسًا لا يستسلمون بالرغم من أنّ يداً قوية تضغط على أعناقهم تحاول خنقهم، وأيقنت حينها أنّ خير ما فينا ما زال شابّا وفتيّا. تلك كانت جرعة الأمل.

وتعود بي الذاكرة إلى سنوات طفولتي الأولى وبدايات الوعي وحكايات عن جارنا أبو حسن العكّاوي، ذلك الرجل النحيف والطويل القامة، بشرواله الأسود الطويل، كان يعتمر الكوفيّة البيضاء بدون عقال ويلفّها حول رأسه بطريقة مميّزة، وشاربيه المعقوفين يتراقصان فرحًا عندما يتحدّث عن عكّا وبحرها، أمّا سمك عكا فلا مثيل له، ولم يذق سمكًا بلذّته منذ أن غادرها، وطالما كان يهرب من واقع اللجوء والبعد عن عكّا من خلال جرعة من «بطحة» العرق الحاضرة

أبدًا، يستلّها من الجيب الداخليّ لمعطفه، ويأخذ «مجّة» من «حليب السّباع» كما كان يسمّيه. بعد أن غادر أولاده للعمل في الخليج لحق بهم وانقطعت أخباره وافتقد حيويتّه كل الجوار، كّلما تحدّثوا عن عكّا، والحكايا عن عكا لا تنتهي، «العكاكوة» كباقي اللاجئين في الشتات، يعيشون قصص الماضي بالبلاد، لعلّها تخفّف من قسوة المنفى ومعاناة الشّتات. لقد أجادت الصديقة والكاتبة العكّاوية حنان بكير بسرد حكايا «العكاكوة» في الشتات وذلك من خلال روايتها الأولى «أجفان عكا»، عن أبو جابر صاحب مقهى «العكاكوة» وحكاياه التي لا تنتهي.

عدت من عكّا مثقلًا بذكريات الماضي، ومفعمًا بالأمل لما شاهدته وعشت في هذه المدينة برغم المعاناة والقهر. هناك الكثيرون ممّن يؤمنون بما قاله الشاعر طيّب الذكر محمود درويش: «على هذه الارض ما يستحقّ الحياة». كانت نهاية يومنا هذا في طمرة الزُعبيّة، تلبية لدعوة العزيز عثمان الزعبي، تلك القرية الوادعة والهادئة، التي تقع في الجنوب الشرقيّ من مرج بني عامر حيث مجموعة القرى الزعبيّة. حول جبل الدحي، مثل سولم والدحي وطمرة الزعبيّة وباقي القرى. جلسنا تلك الأمسية على شرفة المنزل عند لحظات الغروب وبدأ الليل يرخي سدوله وبدت في الأفق البعيد أضواء خافتة، أضواء قرية صندلة كما قيل لي. كانت أمسية غنيّة بالمعرفة مع عثمان الزعبي وعائلته الكريمة في بيته العامر، والذي يدير محلًا تجاريًا في وادي النسناس الحيفاويّ وكان قد درس القانون وتخرّج محاميًا أمّا لماذا كنّا هناك؟ لأنّ عزيز هو «صهر» العائلة. تركت تلك الأمسية إنطباعًا جيدًا عن أبي محمّد لما يتمتّع به من وعي وثقافة واسعتين، جعلني أختصر كل مشاهداتي في هذا اليوم الحافل بتفاصيله الغنيّة في كلٍ من حيفا وعكا ومن هنا، من هذه القرية الوادعة التي يسمّونها شامة مرج بني عامر، وكأنّي بعثمان الزعبي «ابي محمد» يردّد مع المرحوم الشاعر راشد حسين:

العفو يا عكا فما قولي سوى خطرات شاعر
ما كنت سمسارًا لحبّ البحر مأجور المشاعر
فتقبّلي من قريتي العزلاء رائحة الأزاهر
ووداعة الأطفال طاهرة، وأغنية البيادر.

الحلقة الرابعة

لقاء الأهل في طمرة

لقاء الأهل في طمرة

هذا اليوم كان لقاء الأقارب للمرّة الأولى، وبالتحديد ابنة خالتي التي لم تُغادر الوطن والتي لم أُقابلها من قبل. كان لشبكات التواصل الإجتماعي دورًا في ذلك... كان ذلك عندما كنت على تواصل عبر الفيسبوك مع ابنها الدكتور طلال، وهو طبيب أسنان يمارس عمله في عيادته الخاصة في «بلد الشّيخ» القريبة من حيفا. مرّت شهور قبل أن نعرف كلانا أنّ هناك صلة قرابة تربطنا، وأنّ والدته هي إبنة خالتي، كان ذلك بعد حوار مع والدته.

حضر د. طلال إلى حيفا وتعانقنا وشعرت أنّ ابتسامته تتوق للبكاء وأنّ صوته المتهدّج يدلّ على مشاعر اللقاء الجيّاشة، قادنا بسيارته، عزيز وأنا إلى طمرة، ما إن وصلنا إلى مشارفها حتى توقّفنا في مرآب للسيارات، سألته عن سبب التوقّف، أجابني بأنّه يتوجّب علينا أن ننتظر قليلًا، و ما هي إلّا لحظات حتى توقّفت سيّارة أُخرى وخرج منها شابّ يحمل كاميرا تصوير وشابّ آخر عرّفني بنفسه: إنّه باسل طنوس، مخرج أفلام وثائقيّة وناشط سياسيّ واجتماعيّ، تحدّث معي كأنّه يعرفني منذ سنين وأخبرني أنه سيقوم بمرافقتنا وتصوير لحظة اللقاء كجزء من برنامج تلفزيونيّ لقناة مساواة الفضائيّة في الناصرة.

كانت مشاعري كأمواج متلاطمة وأصابني بعض التوتّر لهذا اللقاء غير العاديّ، وعزف الحنين المستيقظ على أوتار أحاسيسي لحنًا لا يُمكن وصفه. كانت لحظة اللقاء مشبعة بالمشاعر الجيّاشة، ولم أجد الكلمات التي ترقى لمستوى المشهد. عرفت لحظتها أنّ الجذور ما زالت هنا، وما زالت قويّة، وكان اللقاء بالعزيزة خولة، زوجة الدكتور طلال، إبنة ميعار المهجّرة من قريتها، ووالديها الأستاذ أحمد شحادة، نائب مدير مدرسة متقاعد وزوجته، وتعرّفت على والد طلال وأبناء خالتي الحاجّ عوض وأولاده، أحفاده وباقي أفراد العائلة. صافحت شابًا في مقتبل العمر، إنّه حسين، الابن الأكبر للدكتور طلال، طالب جامعيّ وناشط

سياسيّ واجتماعيّ، رافقنا في جولة لاحقة، عرفته من خلالها وأثار إعجابي مستوى وعيه الثقافيّ والاجتماعيّ والسياسيّ، أمّا ابنته ياسمين فقد اكتشفت الإنسانة التي تسكنها، كانت تفيض نشاطًا وحيويّة مع إستحياء خجول، تدرس علم النفس في جامعة بئر السبع، شعرت من كلامها أنّها من بقايا الوطن الساكن فينا وشمسًا من شموسه التي لا تغيب، ردّت إليّ وطنًا كنت أركض خلفه زمنًا في غُربةٍ لا تعرف طعم الحنين ودِفء شمس الوطن ونقاء هوائه. عبّرت عن لقائنا يوم الوداع بإهدائي قلادة يتوسّطها قرص من خشب الزيتون كُتبَ عليه: «أيّها الساكن في دمي... أيّ مُكان... أنت لست فيه».

شعرت بحرارة اللقاء وتدفّق المشاعر. نظرت إلى ابنة خالتي وكأنّ نظراتي تخترق كلّ هذه الآفاق البعيدة.. لأرى التشابه بينها وبين والدتي، قبّلتُ جبينها وكأنّي أرى فيها والدتي التي رحلت عن هذا العالم منذ سنين طويلة، دون أن أتمكّن من حضور مراسيم دفنها في بيروت. لقد حرّك اللّقاء الكثير من المواجع، مع سعادة متبادلة، أحسست بها من حشرجة الأصوات، كان هناك الكثير ممّا يشغلنا لنتحدّث عنه على مائدة فطور متأخّر. وتَلونا على بعضنا نصوص جراحاتنا الدفينة ورأيت الحزن يرسو على أهداب من تحاورني، كانت لحظة وجدانيّة نقلتني إلى عالم آخر طالما افتقدته في غربتي الشماليّة المزمنة.

بعدها لا بدّ من جولة، عزيز وأنا مع الدكتور طلال ورافقنا حسين، سِرنا في طريق وعرة، تعرّفت من خلالها على طبيعة الارض. أسافر بأفكاري إلى المنفى في أقصى الشمال البعيد حيث الأماكن التي يستوي فيها وهج النار وبرودة الثلج مع لسعات سوط الغربة المؤلمة، وأنظر في الأرض وترابها وتعتريني رعشةٌ تمنحني الهويّة التي أكون فيها أنا. كانت البداية في سخنين، حيث توقّفنا عند مدخل البلدة وزُرنا النصب التذكاريّ لشهداء يوم الأرض وقرأنا الفاتحة على أرواحهم الطاهرة. كلّما تُذكر سخنين، تُذكر عرّابة البطّوف ودير حنا، يسيطر يوم الأرض وذكراه على المشهد مصحوبًا بكمّ كبير من مشاعر الفخر والاعتزاز بشعبنا في الداخل. كنّا نحيي في بيروت ذكرى يوم الأرض، يوم «الشرف والبطولة» والذي عُمّد بالدم بطقوس حماسيّة ووطنيّة، كان يمنحنا ذلك أملًا بالعودة. كيف لنا أن ننسى خيرية ياسين – ابنة عرّابة، خديجة شواهنة وخضر خلايلة – شهداء سخنين، وابن كفركنّا الشهيد محسن طه، ورأفت علي زهيري – ابن مخيّم نور

شمس قضاء طولكرم، العامل البسيط في مصنع البسكويت في رامات غان والذي لم يذهب إلى عمله في ذلك اليوم ليشارك أهالي الطيبة في الدفاع عن أرضهم، فأصيب برصاصة قاتلة في رأسه، وهناك في الطيبه أقام له الأهالي نصبًا تذكاريًا في الساحة العامّة. ما يفصل بين ذكرى يوم الارض وذكرى مجزرة تلّ الزعتر، أكثر من أن نحسبه بعدد الشهور الأربعة فقط. كلاهما كانا وما يزالان جزءًا حيًّا من ذاكرتنا الجماعيّة، كما شهداء هبّة أكتوبر عام 2000. شاهدت ضريح الشهيدين عماد فرج غنايم ووليد عبد المنعم أبو صالح، وتذكّرت الشهيد أسيل عاصلة الذي كان لي شرف لقاء والدته في حيفا. كانت وحدة الدمّ الفلسطينيّ تغطّي كل المساحات وكانت الأرض كلمة السرّ في هذا كلّه.

تابعنا طريقنا عبر البعنة مرورًا بدير الأسد ومجد الكروم، توقّفنا في قرية الدامون المدَمّرة... توقّفنا هناك كما توقّف الزمن. تذكّرت أبو حسين الداموني، بائع السجّاد العجميّ، المكافح وهو يطوف الشوارع في أحياء بيروت جريًا وراء لقمة عيشه.

لم يبق من الدامون إلّا الحجارة المبعثرة وبضع أشجار، وتلك البئر والساقية العطشى، جلست على طرف البئر أتأمَّل كلّ هذا الدمار والخراب الشديدين.... وهذه الأرض التي كانت تنتج كل أنواع الخضار والشهيرة ببطّيخها. نظرت إلى الصبّار وإلى الأشجار تقف شامخة في وقفتها، حدّقت بجذعها الضارب في عمق الارض، راودني إحساس أنّها تهمس في أذني وتقول: لا تجزع!، جذورنا قويّة في هذه الارض، وهذه الحجارة تنتظر أهلها ليعيدوا بناء بيوتهم هنا من جديد، تذكّرت الصديق نهاد بقاعي الذي يعيش على مرمى حجر من قريته، تخيّلت كميّة المشاعر التي تزخر بالمعاناة وهي تتنازعه عند كلّ زيارة لقريته بالرغم من أنّها لا تغيب عن باله ؟!.. وأقف متسائلاً... الحجر... يبقى حجرًا حتى تعبث به يد الانسان!، فإمّا أن يتحوّل بيتًا أو جسرًا، وربّما يصبح جدارًا عازلًا؟.

وأتذكّر شعرًا مُعبّرًا عن ما يدور في خلدي للشاعر سميح القاسم:

يا منشئين على خرائب منزلي
تحت الخرائبِ نقمةٌ تتقلّبُ

إن كان جذعي للفؤوسِ ضحيّةٌ
جذري إله في الثرى يتأهبُ.

غادرنا الدامون وأنا مثقل بركام من الحزن، جرَاءِ هذا المشهد التراجيديّ.. توقّف الزمن هنا عندما طُرد الأهالي، وماتت الأرض، وجفّت السواقي. سامحيني أيّتها البيوت الصامتة، المبعثرة أشلائها، أغادرك بالكثير من الحزن متسلّحًا بالصبر والآمال العريضة إلى يوم تتسابق السواعد فيه للملمة الحجارة وإعادة البناء، إلى يوم تجري المياه في السواقي من جديد، وتستفيق الأرض من سباتها الطويل وتشتعل اخضرارًا، معلنة عودة الحياة كما كانت عليها، على وقع الأهازيج والمواويل.

مررنا ببلدة شعب وألقينا التحيّة على زيتونها، الذي يحرس مدخل البلدة حيث النصب التذكاريّ المرصّع بكلمات للشاعر محمود درويش من قصيدة الزيتون:

لو يذكر الزيتون غارسَهُ... لصار الزيت دمعاً.

توجّهنا إلى مزرعة والد د. طلال القريبة من الدامون، ومن الوهلة الأولى لدخولي المزرعة أحسست بعمق العلاقة بين الأرض وصاحبها أبو طلال، ذلك الرجل الصامت الذي يزين كلامه بميزان الذهب، لكنّ الحوار بينه وبين أرضه لا ينقطع، يشبه المناجاة، كان يخاطبها بلغة العاشق. شعرت أنّ أشجار الرمّان تتحامل على نفسها وتقف بصعوبة لكثرة ما تحمله من ثمار، وكذلك أشجار الجوافة، لم أكن أتخيّل أن نأكل التين في غير موسمه. كان هناك الكثير مما تنتجه الأرض من الفاكهة والخضار. أثار فضولي بعد تجوالي في المزرعة، كيف استطاع بمفرده إنتاج هذا الكمّ الكبير من الخضار والفواكه المتنوعة؟ ردّ عليّ بابتسامته المعهودة والهادئة وقال: «قدّ ما بتعطي الأرض، الأرض بتعطيك وأكثر».

كانت اُمسية رائعة، كان هناك حسن عازف العود وأخيه عازف الأرغول من جيل الشباب وعلى أنغامهم غنّى عزيز أغنيته المفضّلة: «يا ظريف الطول وقّف تقولك، رايح عالغربة بلادك أحسن لك».

لقد وجدت نفس الجواب على تساؤلاتي: من همسة شجرة في قرية الدامون ومن إبتسامة العمّ أبو طلال، إنّ الأرض تفتقد لأهلها وتحتاجهم لتعود لها الحياة من جديد.

رحم الله الشاعر توفيق زياد الذي ترك لنا رسالة شعرية:

..... هنا لنا ماضٍ.. وحاضر... ومستقبل

الحلقة الخامسة

زيارة الجليل الأعلى "ميرون"

زيارة الجليل الأعلى «ميرون»

باغتتني فجر هذا اليوم رغبة جامحة بالقيام بجولة صباحيّة في وادي النسناس قبل أن نتوجّه برحلتنا المقرّرة الى أعالي الجليل وتحديدًا إلى قرية ميرون المهجّرة. حيّ وادي النسناس الشهير وسُميّ نسبة إلى «حيوان النسناس» هذا الحيّ الذي كان قد ضمّ جميع من تبقّى من عرب حيفا عام النكبة حيث عاش العرب فيه تحت حكم عسكريّ قاس، أُحيط الحيّ في ذلك الوقت بالأسلاك الشائكة وكان الدخول والخروج منه لا يتمّ الا بإذن عسكريّ مُسبق. يقع السوق وسط أبنية حجريّة قديمة تصطف على جانبيّ الطريق وتتميّز بفنّها المعماريّ العربيّ القديم، تعلوها الشرفات المحاطة بالدرابزين الحديديّ والذي يضفي على الأبنية رونقًا جميلًا، هي المكان المفضّل لأمسيات وسهريّات أهالي الحي في ليالي الصيف الحارّة حيث يُطفئ نسيم بحر حيفا الكثير من حرّها المشبّع بالرطوبة. يشتهر الحيّ بسوقه وخاصّة سوق الخضار الذي يعجّ طوال اليوم بالمتسوّقين. وصلنا السوق صباحًا وتجوّلنا في الأسواق، وخاصّة سوق الخضار الذي ذكّرني بسوق الخضار في بيروت، وسوق صبرا. كان الجوّ صاخبًا، وجوه متنوّعة كقوس قزح، لغات مختلفة، هذا اليهوديّ العراقيّ وذلك اليهوديّ المغربيّ وذلك الاثيوبيّ، وعزيز يناقش الجميع بلا هوادة ويسألهم من أين ومتى أتوا لفلسطين؟، كان الحوار بالعبريّة عصيًّا على الفهم بالنسبة لي، ويافطات بالروسية تتسلّق بعض الحوانيت، هذا سوق يؤمّه العرب واليهود وذلك لتوفّر الخضار المتنوّعة، المعروفة بأسعارها المريحة. تأسرك رائحة الخبز والمناقيش وأنت تمرّ بجانب الفرن ونتوقف قليلًا وحديث سريع بين صاحب الملحمة وعزيز، والكثير من دكاكين الحلويّات والتوابل على جانبيّ الشارع، وقبل هذا وذاك نشأ في هذا الحيّ الكاتب إميل حبيبي، وعاش فيها ايضًا الشاعران محمود درويش وسميح القاسم وغيرهم. وكان مقرًا للحزب الشيوعيّ وجريدة الإتّحاد.

إمتلأت نفسي بمشاعر مختلفة هي مزيج من الحنين والإعجاب والفرح: الحنين المستيقظ على عزف أوتار روح مشتاقة، فغرّدت لها كلّ جوارحي، وأثارت إعجابي إرادة الحياة التي تؤكّد على التمسّك بالهويّة واليقين الذي لا يتزعزع بأنّ الحقّ سيعود لأهله مهما طال الزمن. إجتاحني فرح عارم، أيقنت بأنّ وادي النسناس وأهاليه ليسوا غيمة عابرة، بل نجمة ساطعة في سماء فلسطين، وأنّ سيوفهم تحوّلت الى أغصان ضربت جذورها في أرض حيفا وتعلّموا لغة الأشياء الصامتة التي تجعل من مجرّد ثباتهم على هذه الارض حراسًا لها، يحفظون إرث أبائهم وأجدادهم من الاندثار.

تابعنا سيرنا باتجاه مدرسة «اورط الكرمل» للقاء الصديق عادل ملشي، مدير المدرسة. أوّل ما يقابلنا على مدخل المدرسة لوحة تذكاريّة بتوقيع الفنان العكيّ المبدع وليد قشاش، كان قد أنجزها تخليدًا لذكرى ضحايا حوادث الطرق من الشباب، لتذكيرهم بأخذ الحيطة والحذر، وكان هناك حوار مع الصديق عادل حول دور المدرسة. كان مثيرًا للإعجاب الدور الرائع الذي تقوم به هذه المؤسسة في مكافحة مشكلة التسرّب، حيث يقوم الأساتذة بدور كبير في تأهيل الطلاب العرب الذين لم يساعدهم الحظ في إكمال المرحلة الدراسيّة لتهيئ لهم المدرسة فرصة تعلّم مهنة تؤهّلهم للعمل في مجال الكهرباء وميكانيكا السيّارات وغيرها من المِهن، بالإضافة إلى تنمية المواهب الفنيّة لدى البعض منهم، ما ينقذ الكثيرين منهم بالوقوع في مخالب الآفات والمشاكل الاجتماعيّة.

مع تسلل الظهيرة الملتهبة بين ثنايا ذلك النهار، تحرّكنا حسب الاتّفاق باتّجاه الجليل الأعلى... إلى ميرون... ولكن لماذا ميرون بالذات؟... إنّها موطن عائلة كعوش التي ربطتني بهم علاقة قديمة منذ ستّينات القرن الماضي بالاضافة إلى علاقة نسب. الصداقة معهم امتدّت من بيروت... إلى موسكو خلال دراستي... وأخيراً إلى كويبك في كندا حيث هناك صديقة من آل كعوش عرفت بزيارتي للوطن... وكان هناك رجاء اعتبرته غاليًا: أن أزور قريتها «ميرون» وأرسل لها من هناك بعض من ترابها إلى حيث هي في تلك الأصقاع الشماليّة. وعدتها بأن أفعل ذلك وأنا أعرف ما معنى هذا الحنين الساكن في القلوب المشتاقة للوطن وترابه والمُكتوية بنار الغربة. شعرت بمسؤولية إزاء رغبتها... وهذا ما حدث.

كان وصولنا الى ميرون الواقعة على السفح الشرقيّ لجبل الجرمق في ذروة الأعياد اليهوديّة وبالقرب من ميرون ضريح للحاخام التلمودي «بار يوحاي» ،إزدحام كبير، والمكان يعجّ بالزوّار بمناسبة الزيارة السنويّة "عيد الشعلة"، سِرنا باتّجاه القرية الوادعة. ذهبنا بدايةً الى مقابر القرية وبيادرها... وأشجار زيتونها... وبعدها اتّجهنا إلى مدخل القرية الرئيسيّ، تسلّقنا الأدراج حيث المغاور الصخريّة.... لم يبق من بيوت القرية إلّا بيت المختار محمد طلال كعوش وفي أعلى المرتفع على التلّة، وهو الذي أكّد لنا موقع القرية، بقايا من هيكل يعود إلى العهد الرومانيّ، يقول الصديق عزيز أنّه من بقايا المعابد التي بناها الملك الرومانيّ هيرودوت، وكانت له شروحات عن مذبح المعبد. من ذلك المكان المرتفع، بدت على يميننا مدينة صفد... وأمامنا قرية الصفصاف المهجّرة. وإلى اليسار كانت الجشّ... وأطراف فسّوطة... حسب الشرح المستفيض لعادل وعزيز...هبّت نسائم عليلة... حملت معها كلّ ما هو جميل في هذه البقعة الجليليّة... جلسنا طويلًا نتأمّل قرى الجليل الأعلى وروعة الطبيعة وطِيب هوائها.. كانت الشمس تتأهّب للمغيب. عندها أسرعنا الخطى، جمعت ترابًا من عدّة أمكنة ومن شجرة لوز مثمرة قطفت بعض ثمار اللوز المتخشّب. غادرنا القرية مودّعين بيوتها المهدّمة... تقاسمنا الشكر... شكرتهم لأنّهم أتاحوا لي فرصة الوفاء بوعدي، وبدورهم شكروني لأنّهم تعرّفوا على هذه القرية الوادعة وأنّهم يزورونها لأوّل مرّة.

كانت رحلة مميّزة ومثيرة، كنت أبحث بين أكوام الصخور الصامدة عن بقايا وطن، حيث الزهور والأشجار تتنتظر من يرويها. إنتظرينا أيّتها البيوت المندثرة والتي تناثرت أحجارها في كلّ مكان، خلت من أهلها... خلت من أصوات الأطفال، وخلت من نعمة الحياة. هناك إلى الشمال في صيدا وأطرافها، من يشدّهم الشوق والحنين للعودة معهم الحياة، فلا يُحيى الأرض بعد موتها إلّا أبنائها الحقيقيّين.

تأمّلت مطوّلًا في هذا الجزء الغالي من الوطن، المكسوّ بكلّ ألوان الحنين، أتسائل ما بيني وبين نفسي: هذه الأراضي الواسعة والسفوح الجميلة الخضراء الخالية، أين أهلها؟... عذرًا لسؤال وأنا الذي أعرف جوابه لأنّني واحد منهم... إنّهم

هناك في مخيّمات الشّتات في «المية ومية»، «عين الحلوة» وفي المنافي البعيدة. مررنا بطريق عودتنا بقرية فرّاضية المهجّرة، وتذكّرت أهاليها حيث عاش معظمهم في مخيم تلّ الزعتر... عادت بي الذاكرة إلى تلك الأيّام عندما لمحت القرية في ذلك الغروب الحزين المتّشح ببقايا ضوء، مرّ أمامي شريط الذكريات لوجوه رائعة من هذه القرية: الشهداء أبو محمد عيد، زهير كرّوم وعائلة كرّوم وأبو أمل، عائلة شمس وعائلة الدوخي التي قدّمت الشهداء وجمال الذي عمل معنا في الهلال الأحمر والكثيرون الذين هم مازالوا على قيد الحياة يتملّكهم الحنين للعودة إلى قريتهم .

وتحضرني أبياتُ للشاعر طيّب الذكر سميح القاسم من قصيدة غرباء:

سنوات التيه في سيناء كانت أربعين

ثم عاد الآخرون

ورحلنا.. يوم عاد الآخرون

فإلى أين ... وحتامَ سنبقى تائهين

وسنبقى غرباء؟!

الحلقة السادسة

لقاء مع الطّنطورة

لقاء مع الطّنطورة

ليت الفجر أمهلني قليلاً.... حتى ترتقي مشاعري إلى مستوى المشهد الذي ينتظرني، كيف لا وهو يوم اللقاء مع الطنطورة... الحزن يقبع في صدورنا وينهش جذورنا العصيّة على الاقتلاع والنسيان، وهل تاريخنا غير تلك السلسلة المتواصلة من المجازر؟... تؤرقني كثيرًا لحظة هذا اللقاء، ومعرفة ما حدث لأهلنا في الداخل، لمن هم ما زالوا على قيد الحياة، ومن هم تحت التراب.

لم تكن هناك من سعادة يمنحنا إياها هذا العالم، ونحن ننتقل من منفى إلى منفى، نقفز من قطار إلى قطار، وما بين أرصفة الموانئ الغريبة ومن مدينة إلى مدينة، هائمين في شوارع المدن الكبرى، نبحث عن شيئٍ يشبهنا، يخفّف من لوعتنا ويلغي أوجاعنا. لم تُنسِنا تلك العلاقات العابرة لون الأرض وطعم زيتونها ورائحة الخبز. لقد ردّت لي الغربة لون وجهي الحقيقيّ وأرجعتني إلى منابع الشوق والحنين، وجدت نفسي أجري لاهثًا وراء وطن مُكبّل... حلمي لم ينم يومًا مطمئنًا خوفًا من كوابيس تطاردني. شعرت أَنّي مدينٌ لهذا الْيَوْمَ، لحلم صباحيّ يرسم لي صورة الوطن وأرضه المخضبة بدماء الشهداء لتزهر نصرًا وعودة على الرغم من أنّهم سرقوا أضلاعنا ووزّعوا دمنا على كل القبائل. لم يُخرجني من هذه الحالة الوجدانيّة إلّا صوت عادل، يُحثّنا- بعد أن ألقى علينا التحيّة على طريقته الخاصة وبصوته الجهوريّ- علينا أن نهيّىء أنفسنا للتحرّك جنوبًا إلى الطّنطورة التي وصلناها بعد أن قطعنا ما يقارب الـ 24 كيلومترا إلى الجنوب من حيفا. كان ما شاهدته في قرية الدامون المدمّرة وفي ميرون ما زال مسيطرًا على مخيّلتي. كيف سيكون عليه المشهد هنا في الطنطورة؟، كيف سأتلمّس خطواتي بحذر حتى لا أتعثّر بالقبور؟، وإذ بنا، بعد ان ولجنا بوّابة حديديّة أمام مجمّع سياحيّ ومسابح، وتلّة وشاطئ رمليّ. لقد غيّروا ملامح تلك القرية التي تتّكأ على مرتفعٍ صغير وتغسل قدميها بمياه بحرٍ يداعبها بأمواجه

الهادئة والمتلاحقة، ويحكي لها قصصًا هاربة من عبق التاريخ.... ويذكّرها بأصلها الكنعانيّ وبأنّ اسمها الحقيقيّ هو (دور) وتعني بالكنعانيّة «المسكن»، ومن هنا أخذوا اسم المستوطنة التي بنوها على أنقاض الطنطورة وسمّوها (موشاف دور)، يستوطنها يهود من بلاد اليونان. أمّا الطنطورة فتعنى «مزودة شمسيّة» على شكل مسلّة أو ما تُسمى الساعة الشمسيّة. على امتداد الشاطىء أراض خضراء وأشجار نخيل عاصرت كلّ ما حدث على أرض الطّنطورة. مشينا ثلاثتنًا على الشاطئ الرمليّ؛ عزيز وعادل وأنا إلى بيت حجريّ قديم أخبرنا عزيز الذي يعرف تاريخ المكان، أنّه بيت حجريّ بُني عام 1883 لعائلة «آل يحيى الطّنطوريّ» ويعرف اليَوْمَ ببيت الصيّادين وأمامه وعلى مسافة قريبة من الشاطئ مجموعة من القوارب الخشبيّة تتراقص فوق الماء تعود للصيّادين العرب ممّا تبقّى من أهالي الطّنطورة الذين هُجّروا إلى بلدة الفريديس القريبة. إلى جهة الشرق وخلف سياج حديديّ لمحت قبّة بيضاء قيل لي أنّها ضريح «الشيخ عبد الرّحمن البيجيرمي».

دخلنا غرفة الصيّادين في ذلك البيت الحجريّ القديم، لنستذكر ما حدث لهذه القرية في سنيّ النكبة. لقد هاجمت القرية العصابات الإرهابيّة الصهيونيّة من كتيبة 33 التابعة للواء الكسندروني وقد اخذ أهالي القرية قرارًا بالدفاع عن نفسهم، ولكنّهم لم يصمدوا طويلًا لعدم تكافؤ القوى... وكانت المجزرة. فاجأني عادل بالقول أنّه تحت موقف السيارات حيث أوقفنا السيارة؛ هناك قبر جماعيّ لأهالي القرية... سرت قشعريرة في داخلي لهول ما سمعت، وتذّكرت أيّام الحصار في مخيم تلّ الزعتر... وتجسّدت أمامي صور المجزرة في صبرا وشاتيلا، الفاعل واحد والأسلوب نفسه والضحيّة نفسها وان تعدّدت الأماكن والأزمنة. عام 2000 يصحو ضمير الباحث في جامعة حيفا «ثيودور كاتس» ويدافع عن أطروحة ماجستير حول الطّنطورة اعتمد فيها على شهادات حيّة ممّن عاصروا المجزرة من أهالي الطّنطورة وبعض ممّن شاركوا من القوّات المهاجمة، يقول: «لم يكن من حقّ القوّات المهاجمة طرح أسئلة، فأعدم من أُعدم وأجلي الباقين إلى مناطق أخرى». أمّا عمليّة دفن الضحايا فيرويها على لسان الحارس «مردخاي سوكولر» وكيف أنّه وضعهم الواحد تلو الاخر في حفرة كبيرة وأهال عليهم التراب بجرّافة وقدّر عدد الضحايا ب 230. في اليَوْمَ التالي تشنّ القوى الصهيونيّة والصحافة

حملة على كاتب الاطروحة. النتيجة سحب الإعتراف بأطروحة الماجيستير، وعلى الضفّة الأخرى، شهادة والدة الشهيد عزّ الدين قلق – الذي كان مديرًا لمكتب منظّمة التحرير الفلسطينيّة واُغتيل في باريس – ترويها للكاتب الياس خوري حينما قابلها في دمشق عام 1978 وروت له الفظائع التي ارتكبت. أمّا الكاتبة «رضوى عاشور» التي أنجزت عملًا روائيّاً قبل وفاتها، فقد أرّخت ووثّقت لمجزرة الطّنطورة من خلال روايتها الرائعة «الطّنطوريّة» والتي عملت عليها عدّة سنوات. واستطاعت من خلال بطلة الرواية «رُقيّة الطنطورية» التي كان عمرها لا يتجاوز الـ 13 عامًا عندما حدثت المجزرة، حيث التقت الكاتبة بها ومن خلالها بنت روايتها حول مجزرة الطّنطورة. جلسنا على شاطىء البحر في ذلك البيت الحجريّ العتيق نستمع لرواية عزيز عن الطّنطورة، وبعدها إقترح عزيز أن نكمل جولتنا في قرية أخرى مهجّرة وقريبة وتقع إلى الشرق من الطّنطورة. إنّها قرية «عين غزال» المدمّرة بعد أن هُجّر اَهلها. عبرنا الطريق العامّ وسرنا وسط سهل تحفّ بِنَا من كل جانب بساتين الموز، يقود عادل السيارة بمهارة عالية في دروب شديدة الوعورة، مليئة بالكتل الصخريّة، صعودًا إلى تلّة تغطّيها أشجار الصنوبر حتى وصلنا إلى مقام في وسط التلّة تعتليه قبّة بيضاء، إنّه «ضريح الشيخ شحادة»، زار عزيز المقام من قبل وقام هو وزوجته عليا بعمليّة ترميم جزئيّ للضريح وتنظيفه. نظرت إلى الأسفل في ذلك المنحدر لأشاهد بقايا جدران حجريّة، هي ما تبقّى من بيوت القرية، ومن على تلك التلّة ألقيت نظرةً الى السهل الساحليّ، تعود أفكاري مّرةً أُخرى إلى الطّنطورة. خرجت عصر ذلك الْيَوْمَ بألم ممزوج بالحزن على ما شاهدت وسمعت، وأنا على يقين أنّ التاريخ لا يمشيً القهقرى، ولكن ماذا عساني أن أقول لمن تَرَكُوا المحراث واقفًا وسط الحقول؟... ودولاب البئر وقد علاه الصدئ؟... ماذا أقول للسواقي الجافّة والصامتة تخترقها الندوب؟... تُرى ماذا يهمس البحر في آذان تلك القوارب التي تتراقص على سطح الماء؟... أين هم أهالي الطّنطورة؟... أين البحّارة والصيّادين؟... أين الفلّاحين؟.

كيف لي أن أنطلق من هنا بسلام وبدون شحنة كبيرة من الألم والكآبة ؟.. كيف لي أن أغادر الطّنطورة دونما جُرح في داخلي يلامس أوجاع الروح ويعتصرني الحزن ؟... جرح يُضاف الى كلّ تلكَ الجروح التي لم تندمل بعد... جروح تنزف

على مدى عقود، مستحضرًا المجازر المثقلة بالأحزان والمعاناة... آثار المشهد وما سمعت، الكثير من الشجون، كأنني أسمع أنينهم يشقّ الثرى ويخترق الإسفلت في موقف السيارات المشؤوم ليلامس أسماعي. شعرت أنّ الأرض أصبحت أغلى وأنقى لما تحويه من رفات وبما جُبلت بها من دماء... وأنّ مهرها أصبح أغلى... ولسان حالي يقول: لا تدع أمواج البحر تفصل بيننا ولا طول السنين تنسينا ما حدث، وتجعله في خانة الذكرى... لا بل إنّه الذاكرة الجماعيّة... هي زيت مصباح ينير للأجيال القادمة طريقًا نحن نعرف نهايته المحتومة. إنّ أقصى وأسمى مراتب الحبّ هي لحظة الوداع. بهذه المشاعر الجيّاشة ودّعت الطّنطورة، وأنا أتذكّر ما قرأت عن تلك اللحظة التي تجسّد قمة المأساة المغلّفَة بالأمل في رواية «الطّنطورية» عندما التقت «رقيّة الطنطوريّة» الجدّة على الجانب اللبنانيّ من السلك الشائك (من خلال رحلة منظّمة لأهالي المخّيمات) مع ابنها حسن على الجانب الآخر -العائد إلى الوطن بجواز سفر كنديّ - في مشهد دراميّ يُعبّر عن قمّة المأساة الفلسطينيّة وهو يرفع عاليًا طفلته المولودة حديثًا رقيّة الصغيرة ملوّحًا لوالدته: «هذه رقيّة الصغيرة يا أمّي!». فما كان من الأم إلّا أن تحسّست رقبتها، مدّت يدها إلى صدرها ولامست يداها ذلك المفتاح الذي حملته في رقبتها منذ أن غادرت الطّنطورة، رفعته عن رقبتها ووضعته حول رقبة رقيّة الصغيرة وقبّلت جبينها قائلة بصوت عال: «مفتاح دارنا يا حسن هديّتي لرقيّة الصغيرة».

الحلقة السابعة

حيفا تحتضن تل الزعتر 20/10

حيفا تحتضن تل الزعتر 20/10

من أجل هذا اليوم كانت عودتي المؤقّتة للوطن. إنّه يوم إشهار وتوقيع الطبعة الثالثة من «يوميّات طبيب في تلّ الزعتر»، بمناسبة الذكرى الأربعين للمجزرة. اليوم سيكون اللقاء مع دائرة أوسع من أهلنا في الوطن، وستكون الأمسية التكريميّة في نادي حيفا الثقافي، سأتحدّث عن يوميّات الحصار ومعاناة أهالي المخيّم... أحسست بثقل المسؤوليّة ورهبتها، أن يكون ذلك بعد أربعين عامًا بحدّ ذاته سينكأ الجراح التي لم تندمل، أستحضر الماضي الذي لم ولن أنساه. أصابني شيء من التوتّر والقلق، أخاطب نفسي متسائلاً: هل ما زال الناس يتذكّرون مخيّم تل الزعتر...؟ وكأنّ حيفا أحسّت بوطأة المهمّة وأجابت على تساؤلاتي دون تمهّل: وهل نسيت أنت حيفا...؟ حتى تنسى حيفا أهلها؟ حيفا التي يعشعش في وجدانها كلّ الحنين لأبنائها الغائبين. كان هناك مزيجٌ غريب من المشاعر حيث تختلط السعادة بالحزن وأحاسيس أخرى، كتلك التي تسيطر على المرء في مثل هذه الحالات: الحديث عمّا جرى خلال فترة الحصار من معاناة الأهالي وما حدث من مجازر، بالرغم من أنّني تحدّثت عن ذلك سابقًا مرّات عديدة، إلّا أنّه بعد أربعين عامًا كيف سيكون عليه الحال؟!.. وأين ؟ في حيفا!...المكان ليس كباقي الأمكنة ولا الزمان كذلك؛ ومَنّ سأتحدث إليهم اليوم ليسوا كمن تحدّثت إليهم سابقًا، سيكون لقاءً مفعمًا بالمشاعر الجيّاشة حيث ستختلط فيها آمال العودة بمعاناة المنفى ومآسي مخيّمات الشّتات. سأتحدّث اليوم عنهم وبإسمهم، هل ستكون مرثيّة؟... أم نصًّا أخلاقيًّا ووجدانيًّا، يعكس حجم المأساة والمعاناة المغلّفة ببطولةٍ لامست الأسطورة؟... إنّها حكاية مخيّم جليليّ يسكنه فلسطينيّون ولبنانيّون فقراء من الجنوب وبعض العرب، حوصر، قاوم وجاع وعطش ولكنّه صمد حتى الرمق الأخير، وفي حلقه غصّة من ذوي القربى ووليّ الأمر ولسان حاله يقول: لقد تُرِكنا وحدنا لمصيرنا المحتوم... بعد ان وُزِّع دمنا مسبقًا على مختلف القبائل.

كان من حُسن التدبير الذي هوّن عليّ رهبة اللقاء في تلك الأمسية أن دعاني الصديق المحامي فؤاد نقّارة، رئيس نادي حيفا الثقافي، وزوجته سوزي إلى منزلهما العامر في شارع الراب حلفون صباح ذلك اليوم، حيث أجرت معي مقابلة الناشطة في النادي خلود سرّية؛ كان اختيار شرفة المنزل المشرفة على حيفا وبحرها مكانًا للقاء موفّق، وكأنّه معدًّا باتقان ممّن يريد لي أن آخذ حظّي من الراحة النفسيّة، فالنظر إلى حيفا وبحرها يبعث في النفس الهدوء والسكينة. في ذلك اللقاء الذي ضمّ الصديق المحامي حسن عبادي، الناشط في النادي، والصديق عزيز خضر. لقد طرحت أسئلة كأنما وضعت يدها على الجرح الذي لم يندمل بعد، لقد حرّكت المواجع واستحضرت الكثير من اللحظات الأشدّ إيلامًا في أيّام الحصار المرير، كان لذلك دور في امتصاص حدّة التوتّر لديّ بالاضافة للأجواء المريحة التي أحاطتنا بها العزيزة سوزي من حسن الضيافة.

شعرت في هذا البيت الذي يعبق بالثقافة أنّ الحاضر الأوّل هو الكتاب.

عدت مرتاحًا من جوّ اللقاء بالرغم من آلام الذكريات التي تعتصرني ولكنّها ساعدتني في ترتيب أفكاري تحضيرًا للأمسية العتيدة.

في مساء ذلك اليوم كان أوّل لقائي بالدكتور سمير خطيب وزوجته ابنة مخيم تلّ الزعتر الدكتورة نوخا خطيب. الدكتور سمير هو طبيب أسنان ورئيس جمعية الخرّيجين من روسيا والاتحاد السوفياتي السابق وناشط سياسي. أمّا د. نوخا فلم ألتقيها منذ كانت في الثانية عشر من عمرها، حين كانت ضمن لجان المتطوّعين في الهلال الأحمر الفلسطينيّ في مخيّم تلّ الزعتر.

كان حجم الحضور كبيرًا. لقد شعرت أنّ المنفى الذي كان قد خطف ظلّي لعقود طويلة، قد غادرني في تلك اللحظة وأحسست كم أشبههم ويشبهونني، وأنّ أنفاسهم قد وصلت إليّ وملأت قلبي بشجون إيجابية، أعطتني مزيدًا من الطاقة والقدرة على أن أبدأ الأمسية باستعداد كامل للحديث عمّا جرى في تلّ الزعتر.

إستهلّ رئيس النادي الاستاذ فؤاد نقّارة الأمسية بكلمة ترحيبيّة وعن دور النادي في تطوير الحياة الثقافيّة في حيفا، بعدها تحدّث الصديق د جوني منصور

المكلّف بإدارة الأمسية، وهو الذي كان له الدور الكبير في إصدار الطبعة الثالثة لليوميّات في حيفا، تحدث فيها عن أهميّة اليوميّات كوثيقة تحفظ الذاكرة الجماعيّة للمخيم... وحول مخيّم تلّ الزعتر ومكانته في الوجدان الفلسطينيّ. أمّا الصديق العزيز المحامي فكتور مطر فقد قام بمطالعة نقديّة، شرح وحلّل مفاصل اليوميّات بلغة أنيقة فيها الكثير من المعاني المفعمة بالمشاعر الإنسانية ببُعدها الفلسفيّ. تحدّث عن أهميّة الذاكرة الجماعيّة في حياة الشعوب مصنّفًا كتاب «يوميّات طبيب في تلّ الزعتر» على أنّه ينتمي إلى «أدب الحصار» ويمثّل صرخة إحتجاج ضد الطغاة وظلمهم، وبأنّه يصيب القارئ في بؤبؤ دماغه وقلبه، وأنهى مداخلته الرائعة بمقولة للكاتب الفرنسي البير كامو: «إنّ انعدام الأمل لا يعني اليأس».

أما الدكتور سمير فأرتجل كلمة متحدّثًا عن علاقته بمخيّم تل الزعتر وأنّه «نسيب» المخيّم وإنّه على علاقة مع الكثيرين ممّن كانوا في المخيّم، وتحدّث عمّا سمعه من صعوبة الظروف التي عملنا فيها كأطبّاء، وأفرد لكتابة التاريخ وحفظ الذاكرة الجماعيّة حيّزًا مرموقًا في وعي ووجدان الشعب الفلسطينيّ.

خلال حديثه اتصل عدد من أهالي المخيّم في الشتات بواسطة الهاتف بالمحامي حسن عبادي طالبين التحدّث للحضور عن أوضاع الحصار بعضهم أجهشّ بالبكاء من شدة تأثّره ومنهم المناضل أبو عرب، المناضلة نوال ابراهيم – أم أحمد– والمناضل الحاجّ يوسف العلي.

تحدّث بعد ذلك الصديق حسن عبادي عن كتاب «تل الزعتر يقاوم التغييّب» الذي صدر في حيفا حديثاً للكاتب والاعلاميّ المميّز والمقيم في رام اللّه الصديق بسام الكعبي الذي صاغ كتابه بمهنيّة ومصداقيّة تبعث للاحترام والإعجاب، تصميم دار النشر الحيفاوية ''مجد'' بإدارة صديقي الفنّان ظافر شوربجي، ووُزّع على الحضور لتبقى ذكرى مجزرة تلّ الزعتر خالدة.

وحان وقت كلمتي، كنت وقتها في دوّامة الأحاسيس والأفكار التي تسيطر على المرء في مثل هكذا مواقف. بدأت الحديث وكأن النصّ ليس لي وإنّما إلهامًا فريدًا من الأهالي الذي أتحدّث عنهم وباسمهم، ووددت في تلك اللحظة لو كان كل من تبقّى من أهالي المخيّم هنا بجانبي. حملتني أفكاري إلى الذكريات البعيدة، إلى

ما عايشناه من مأساة ومعاناة في أتون الحصار الظالم، وعن شجاعة وبطولة نساء المخّيم وباقي الأهالي.

رأيت الكلمات تتدفّق من فمي تارةً كسيلٍ عارم وطورًا تتوقّف الكلمات فجأة وتخنقني العبرة ويتلاشى صوتي عند إستحضاري مشهدًا تراجيديًّا مؤلمًا. كانت ذروة المشاعر الانسانيّة عندما أوصلني المحامي حسن عبادي عبر الهاتف من مدينة «جوتنبورج» بالممرّضة السويديّة المناضلة إيفا شتال حمد والذي كان لمداخلتها وقع كبير، حمل الكثير من الشجون والذكريات المؤلمة، بدى جوّ القاعة كئيبًا والحزن بادٍ على وجوه الكثيرين وهم يصغون لصوتها المتهدّج، لم استطع السيطرة على مشاعري المتدفّقة التي اجتاحت ملامحي ودمعة حارَة تجد طريقها إلى الخدّ وهي توجّه لي شكرها على إنقاذ حياتها بقرار بتر ساعدها، لقد أعادتني إلى ذاك المشهد التراجيديّ وإلى تلك اللحظه الصعبة والمؤلمة وأنا وأبوها نتّخذ القرار الحزين لإنقاذ حياتها في ظروف لا يُمكن وصفها وتخيّلها.

خلال المحاضرة برز هناك مشهد آخر يحمل في طيّاته ذكريات من زمن الطفولة في المخيّم لإحدى الحاضرات في القاعة، وذلك عند عرضي شريحة مُحّوسبة لصورة للدكتورة نوخا وهي في الثانية عشرة من عمرها في اجتماع للجان المتطوّعين في المخيم... كانت مفاجأة لها وتعرّفت على نفسها من خلال فستانها التي ما زالت تذكر تفاصيله، كانت سعادتها كبيرة واستعادت ذكريات من ذلك الزمن البعيد.

فوجئت حين أعتلى المنصّة كلّ من المحاميين فؤاد نقارة وحسن عبادي وصديقي رشاد عمري – صحافي ملتزم وصاحب صحيفة «المدينة» الحيفاويّة ليقدّموا لي لوحة فنيّة بعنوان «تلّ الزعتر يقاوم التغييب» رسمتها بريشتي، طبعها في حيفا الفنّان ظافر شوربجي، وكذلك قدّموا لي صديقيّ حسن وفؤاد برفقة السيد جريس خوري درعًا تكريميًا باسم المجلس المليّ الأرثوذكسي، راعي نشاطات النادي، ونادي حيفا الثقافيّ.

بعد المحاضرة تقدّمت منّي سيدة مخاطبةً لتقول لي: «أنا من تلّ الزعتر... أنا بنت الشاطرة، إسمي منى قيس «أمّ أحمد»... أصبت بساقي اثناء الحصار، وأنت عالجتني وأجريت لي عمليّة جراحيّة في ساقي وأنا أعيش الآن هنا في

الجديّدة، قرب عكا، بعد عودتي للوطن منذ سنوات». كان ذلك خارج نطاق توقّعاتي ولم أكد أخرج من هذه المفاجاة إلّا ويتقدّم منّي رجلٌ ويخبرني أنّه أسير محرّر وقد قرأ كتاب «يوميّات طبيب في تلّ الزعتر» داخل المعتقل ويضيف بأنّ الكثيرين داخل المعتقل قد قرأواه أيضاً. كنت قد سمعت ذلك منذ سنين عديده عندما حدثت عمليّة التبادل الأولى للأسرى. وهو نفس ما أخبراني به في ذلك الحين المناضلان الشهيد «أبو علي مهدي بسيسو» والأسير المحرّر «وليم نصّار».

كان يومًا مزدحمًا بذكريات مريرة ومؤلمة ومثقلاً بالمشاعر الصادقة، التي لا يمكن ترجمتها إلى حروف وكلمات، ولكن لقائي بأهلنا خفّف كل هذه المعاناة وأعاد إليّ ما كنت قد افتقدته في سنوات المنفى الثقيلة والطويلة التي تشبه الموت البطيء... إنّه إلتقاء الروح بالجسد. لقد أعطيتموني في هذه الأمسية الكثير الكثير من حيث لا تدرون... إنّ تكريمي في حيفا هو مبعث فخري واعتزازي وهو أثمن عندي من أيّة تكريم آخر، مهما علا شأنه وأنا لا أعتبره تكريمًا لشخصي بقدر ما هو تكريمُ لشهداء المخيّم وما تبقّى من أهاليه في مخيّمات الشتات وفي المنافي البعيدة. شعرت أنّ الربيع الهاجع داخلي قد استيقظ وأزهر هنا على أرض الوطن، وشعرت أنّ صوتًا من داخلي وكأنّه يخاطب أهلنا قائلاً: ولا غاب عن بالي يومًا ولا عن بالكم أنّني ومع جموع الكثيرين سنعود يومًا إليكم هنا. تذكّرونا عندما «تحوّشون» الزعتر والخبّيزة «والعلت» وعندما يزهر اللوز في الربيع وفي موسم العكّوب... وفي الخريف في موسم قطاف الزيتون... وعند المعصرة...

في المساء وعلى مائدة العشاء مع أعضاء النادي بادر المحامي حسن عبادي بإهدائي نسخة من كتابي موقّعة من جميع الاعضاء تتصدّرها كلمات رائعة بخطّ العزيزة كوليت حداد، جاء فيها:

«كيف استطعت أن ترى الموت وتبقى مليئاً هكذا بالحياة، إعرف وإن حجب الليل ضوء الشمس يبقى هناك نور في دواخلنا لا ينطفى ندعوه «فلسطين الأمل».

نعم صدقتِ عزيزتي كوليت فهذا الوطن المقهور والذي قُتل مرّتين: تارة بالسيف وطوراً بالوعود والأحلام الزائفة... ولكنّها كما قال طيب الذكر الشاعر محمود درويش إنّها:

«سيدة الأرض أمّ البدايات

أم النهايات.

كانت تسمّى فلسطين.

صارت تُسمى فلسطين».

الحلقة الثامنة

الناصرة/كفر كنا

الناصرة/كفر كنا

بعد تلك الأمسية الوجدانيّة في حيفا والمشحونة بذكريات الحصار ومعاناة الأهالي، توجّهت ليلًا مع الأصدقاء د. سمير و د. نوخا إلى بلدة كفر كنّا، مثقلًا بتلك الذكريات التي تعشعش في خلايا دماغي وثنايا مهجتي، أصرّوا على إستضافتي ليومين قبل موعد الأمسية الثانية في مدينة الناصرة، في بيتهم العامر في كفر كنا... والتي جاء ذكرها في الإنجيل وقيل أنّها (قانا الجليل) حيث حدثت معجزات السيد المسيح حسب نصوص الكتاب المقدّس. ولعلّ ذلك ما أشعرني بالأمل وبعض الراحة والسكينة، ولكن الحديث طال في تلك الليلة، والحاضر الوحيد كان مخيّم تلّ الزعتر، وشريط لا ينتهي من الذكريات. إسترجعت العزيزة نوخا ذكرياتها في المخيّم التي لم تتحدّث عنها قبل ذلك اليوم، كما أخبرني الدكتور سمير. في الصباح الباكر كنت على موعد مقابلة في مدينة الناصرة على «تلفزيون مساوة». بعد حديث شيّق على مائدة الفطور مع ابنتهم ماجدولين، الطالبة الجامعيّة التي أثارت إعجابي من خلال حديثنا، بوعيها السياسيّ والوطنيّ الذي يبشّر بجيل يحمل القضيّة بأمانة. توجّهنا بعدها إلى الناصرة التي لا تبعد كثيرًا عن كفر كنا. تتميّز المدينة المتناثرة على سفح جبل ببيوتها الحجريّة الجميلة وذات السطوح القرميديّة، تتوسّطها قبّة كنيسة البشارة (البازيليكا) وكنائس اخرى؛ وهي أكبر المدن العربيّة في الجليل وتعتبر المركز الثقافيّ والاجتماعيّ للفلسطينيّين في الداخل. كان طقسًا جميلًا ممّا مكّنني من رؤية تفاصيل هذه المدينة الرائعة الجمال ذات الماضي المُفعم بعبق الدين والتاريخ. مدينة السيدة مريم العذراء والسيد المسيح عليهما السلام.

بعد المقابلة مع قناة مساوة، كان لقاء عابر في مقهى قريب مع الأستاذ سميح غنادري الذي عرفته من خلال كتابه الوثيقة والذي يشكل مرجعًا مهمًّا في فهم دور المسيحيّة المشرقيّة «المهد العربي»: المسيحيّة المشرقيّة على مدى ألفي عام

والعلاقة المتبادلة مع الإسلام. كتاب جاء في المكان المناسب وفي الزمن المناسب، زمن إزدهار ثقافة العنف والفتن التي تتخفّى وراء القناع الدينيّ في عصر التراجع الفكريّ حسب مقولة عالم الاجتماع «إبن خلدون». إتّفقنا على استكمال الحديث غدًا في بيته بعد أن دعاني لتناول الغداء في بيته العامر في الناصرة.

يبادر د. سمير بسؤالي ما رأيك بنزهة إلى جبل الطور؟ وجدتها فكرة صائبة للتعرّف على المعالم المهمّة في هذه المنطقة التي شهدت نشوء وتطوّر المسيحيّة. يبعد الجبل عن الناصرة حوالي 18 كلم لجهة الشرق في الجليل الأسفل، يبدو من بعيد وكأنّه تلة كبيرة له أنحنائة بشكل نصف دائريّ وعلى إرتفاع أكثر من 500 متر فوق سطع البحر. وصلنا من جهة الغرب مرورًا بقرية دبورية، وهي قرية وادعة تقع على السفح الغربيّ لجبل الطور صعودًا عبر طرق متعرّجة وسط غابات صنوبريّة، حتى بلغنا أعلى القمّة حيث الكنيسة. من هناك يبدو مرج بني عامر من جهة الجنوب وقد أضفى على المشهد جوًا رائعًا يليق بجمال الوطن، مشهد لم يغادر ذاكرتي بعد مغادرة المكان. إنّها كنيسة «التجلّي» التي بُنيت على بقايا كنيسة بيزنطيّة. تتألف الكنيسة من ثلاثة صحون: المصلّى الشماليّ مخصّص للنبي موسى، حيث ألواح الوصايا العشر، المصلّى الجنوبيّ مخصّص للنبي إيليا وفي الجانب الشماليّ الغربيّ كهف يُسمّى كهف «ملكي صادق» حيث إلتقى بالنبيّ إبراهيم.

فوق المذبح لوحة فسيفساء تصوّر «التجلّي». حسب رواية الإنجيل المقدّس: صعد المسيح وثلاثة من تلاميذه جبلًا عاليًا في إحدى المرّات، وهناك على الجبل هبطت على المسيح من السماء هالة مضيئة ممّا أعطته شكلًا آخر يشعّ بالنور وإلى جانبه النبيّان موسى وإيليّا وهذا ما عُرف بالتجلّي، معظم الروايات تقول أنّ هذا الجبل هو جبل الطور. هالني وأثار إعجابي روعة الهندسة المعماريّة ونقوش الفسيفساء داخل الكنيسة، كانت نزهة غنيّة بالمعاني والتاريخ بالاضافة إلى روحانيّة المكان. في طريق عودتنا هاتف حسين السويطي د. سمير، إنّه الإعلاميّ والصحفيّ في صحيفة الصنّارة، مستفسرًا عن كيفيّة اللقاء بنا، ومن محاسن الصدف أنّنا كنّا في مكان قريب من بعضنا البعض، إلتقينا في أحد مفارق الطرق تحت شجرة كينا وارفة الظلال، لم يخطر ببالي عندما ترجّل

من السيارة متجّهًا نحونا أنّني أقابل شخصًا كما لو أنّني أعرفه منذ زمن بعيد، وذلك للتشابه الكبير بينه وبين من كان جارنا في بيروت في ذلك الوقت، أبو خالد الكوري، وسرعان ما أدهشني بقوله عندما أخبرته بذلك: «أبو خالد هو خالي» يا للمصادفة التي نسجت خيوطها في بيروت وامتدّت إلى الجليل. تحدّثنا قليلًا وتواعدنا على لقاء قريب.

صباح السبت 22 اكتوبر: إنّه يوم الأمسية في الناصرة ولكن قبل ذلك هناك موعد لقاء غذاء مع الأستاذ سميح غنادري وزوجته الدكتورة راوية حبيبي غنادري، خرجنا مبّكرين بعض الشيء لأنّ الصديق باسل طنوس إقترح أن نقوم بجولة في مدينة الناصرة. بدأناها من على «جبل القفزة»، وهو جبل صخريّ يعلو أقل من 400 متراً بقليل عن سطح البحر ويطلّ على مرج بني عامر، وفي أسفله تقع قرية إكسال وإلى الشمال نشاهد في الأفق البعيد جبل الطور؛ وحسب رواية الكتاب المقدّس سُمّيَ بجبل «القفزة» للاعتقاد بأنّه الجبل الذي حدثت عليه معجزة إختفاء السيد المسيح حين قفز من عليه واختفى عن من كانوا يلاحقونه حيث كانوا يريدون قذفه من قمة الجبل، عندما أعلن في الناصرة في خطبته الشهيرة أنّه المسيح. يُمثّل الجبل مركزًا لجذب الكثير من السوّاح حيث كان هناك خلال تواجدنا عدد كبير من السوّاح البولونيين. عُدنا أدراجنا الى الناصرة نزولاً، مروراً بالفاخورة، ووجهتنا بيت الاستاذ سميح غنادري.

لقد كان لقاءاً رائعًا على غداء، تخلّله حديث شيّق عن القامة الأدبيّة والوطنيّة الكاتب إميل حبيبي، كنت محظوظًا لحصولي على نسخة من أعماله الكاملة كهدية من ابنته الدكتورة راوية حبيبي والتي أضفت على حرارة اللقاء طقسًا أدبيًا جميلًا. تحّدثنا عن سيرة الوالد الأدبيّة الغنيّة ببعدها النضالي وعن كلمة الشاعر محمود درويش الرائعة في رثائه، وهو الذي كان سيقابله في اليوم التالي، ولكن صاحب المتشائل كان قد توفيّ في ذلك اليوم، وكانت كلمته بدلًا من المقدّمة حيث قال في رثائه: «أيّها الساحر الساخر في كلّ شيئ في كلّ واحد منا واحد منك! باقٍ في حيفا هو الاسم الذي سميّت به إسمك».

تحدّثنا عن ذلك الكتاب الوثيقة: المهد العربيّ للمسيحيّة المشرقيّة والذي بالفعل يستحقّ أن يُترجم إلى لغات أجنبيّة عديدة، الكتاب الذي يتحدّث عن مساهمة

العرب المسيحيّين في بناء الحضارة العربيّة على مدى ألفي عام، حيث يقول في مقدّمته: «ثم تأكّدت أنّه لفهم الحاضر بعمق لا بُدّ من العودة إلى الماضي، إلى البدايات، وتركّز إهتمامي بكلّ ما يوفّره هذا التاريخ من فهم متبادل أرقى بين العرب المسلمين والمسيحيّين يقوم على أساس الوحدة القوميّة الوطنيّة».

بعد هذا اللقاء الغنيّ بعبق الأدب والتاريخ، ودّعتهم شاكرًا حرارة اللقاء وحُسن الضيافة. كانت تُراودني فكرة طالما آمنت بها وهي االتعايش مع المكان والتعرّف عليه قبل الحدث، إقترحت أن نذهب الى مقهى ليوان، حيث ستقام الأمسية؛ قُمنا بجولة في شوارع الناصرة القديمة، سرنا فوق شوارعها الحجريّة إلى كنيسة البشارة وشربنا من بئر السيّدة مريم العذراء، سرنا في تلك الشوارع الضيقة التي تحف بها الكنائس والأديرة من كل جانب، إلى أن وصلنا إلى الطريق المؤدّي إلى المقهى، وهناك لفت نظري رسوم جداريّة وهي عبارة عن رسالة مؤثرة تركها أطفال الناصرة على ذلك الجدار. تقول الرسالة: «الناصرة لنا جميعًا ونحن نحبّ الناصرة»؛ 15/5/1948 وغابة من الأعلام الفلسطينيّة ومفتاح كبير يذكّرنا بحلم العودة. ورسالة أخرى هذه المرة في حضرة «حنظلة» في ذكرى يوم النكبة، كأنّني أمام أحد الجدران في أحد مخيّمات الشّتات، يذكّرنا الناشطات والناشطون النصراويون أنّه قد تمّ طرد أكثر من 780 ألف فلسطينيّ من ديارهم وهدم أكثر من 500 قرية وأكثر من 50 مجزرة و15 ألف شهيد ونصّ رائع كُتبّ بألوان العلم الفلسطينيّ يقول: «مهما بيجَرح بلدنا منلمو، لو كنا قلال.. ولكن ما تعودنا نبكي على الاطلال»... توقّفت مليًّا أمام هذه الرسالة المؤثّرة التي تركوها لمن يهمه الأمر. إنّها الوصيّة من جيل يلغي فكرة ما قيل عن نسيان القضية... جيل ينير بزيته المتوهّج قناديل الأمل بعودةٍ مؤكّدة ولو بعد حين. توغّلنا في شوارع الناصرة القديمة الضيقة حتى وصلنا المقهى؛ أثار إنتباهي إسم المقهى الغارق في التراث فهو المرادف «للديوان» في البيت العربيّ التقليديّ، مقهى صغير في بيت حجريّ يعبق بالفنّ المنتشر في كلّ الزوايا؛ على الجدران لوحات فنيّة وسجّاد متناثر وقطع أثاث فلسطينيّة قديمة، كلّ هذا يعطي المكان رونقًا ثقافيًّا فلسطينيًّا. دخلنا المقهى وتحدّثت مع أحد القائمين عليه وزوجته الألمانيّة، وهو واحد من ثلاثة أسّسوا هذا المشروع، وذكرت له أنّه يشبه كثيرًا بعض المقاهي في بيروت، أخبرني أنّ للمشروع مهمّة إحياء وإنعاش الحركة

الاقتصاديّة والاجتماعيّة في الأسواق القديمة؛ كمكان يجذب إليه السوّاح ويقدّم الوجه الفلسطينيّ لهذه المدينة من خلال المأكولات العربيّة والمعارض الفنيّة والحفلات الموسيقيّة والثقافيّة. لفت إنتباهي ذلك الدرج الصاعد إلى ما يشبه طابق علويّ... أعجبني المكان بدفئه الإنساني والذي يضفي على المكان جوًّا عائليًّا بامتياز، ولكنّي تساءلت بعد الحضور الكبير في حيفا هل سيتّسع هذا المكان هنا لكلّ الذين سيحضرون؟

وهذا ما حدث في الأمسية حيث كان عدد الحاضرين أكثر من المتوقّع، وكان عدد الواقفين خارج المقهى كبيرًا ممّا إضطرّني إلى الوقوف قريبًا من المدخل لأوجّه كلامي لِمَن هم في الداخل ولِمَن هم في الخارج ولكنّ الصعوبة كانت في عدم تمكّن الكثيرين من مشاهدة ما أعرضه على الشاشة من صور وثائقيّة لما حدث... ومع ذلك لقد بذل منظّمو الأمسية من رابطة خرّيجي روسيا والاتحاد السوفياتي السابق كل جهدهم لإنجاح الأمسية، لم يتوقّعوا هذا الحضور الكبير، وجلس الكثيرون في الطابق العلويّ وعلى ذلك الدرج العتيد. سعدت بلقاء الصديقين العزيزين سعاد وعصام مخول في هذه الأمسية. كما ألقت الشاعرة نهاية كنعان عرموش قصيدة ترحيبيّة تحمل الكثير من مشاعر الحب للوطن. تفاجئني سيدة حامل مع زوجها لم أرها من قبل بقولها وأنا أوقّع لها الكتاب بأنّها ستضع مولودًا قريبًا وأنّ اسمه سيكون «يوسف»! إنّها تلك السيدة الرائعة غدير عراقي مريسات. لن أنسى تلك السيدة «لاعبة النرد» حنين سولم التي فاجأتني هي الأخرى وهي تطلب توقيعي على نسخة قديمة للطبعة الثانية من اليوميّات والتي كانت قد صدرت في القدس عام 1978 لتقرأ لي ما كتبت هي: «كنت كبرعم ربيعي يتوق للنور والمعرفة عندما سقط كتاب «يوميّات طبيب في تل الزعتر» في يدي من مكتبة أخي، وكان لقائي الأوّل بالوطن والهويّة بشكل مكتوب؛ بعدما إرتويت من الرواية الشفويّة على لسان أمّي وابي. لقد حفظت هذا الاسم «د. يوسف عراقي» ولكن لم أتخيّل في حياتي أن ألتقي هذا المعلّم وأن يوقّع لي على هذا الكتاب وأبوح له بالسر: إنّه معلّمي الأوّل في معرفة الوطن والهويّة»... لقد أثّر بي هذا اللقاء وهذه الكلمات لما تحمله من معاني الوفاء من سيدة ترعرعت ونمت على حبّ الوطن في مدرستها الاولى، في بيت يزخر بالثقافة والوطنية، وعائلة ينبت في حديقتها عشّاق للأرض والوطن... شعرت لحظتها أنّ حكاية

المخيّم تذهب عميقًا في ذاكرة ووجدان شعبنا في الداخل الفلسطينيّ، خلافًا لضياع ذاكرة المخيّم في صحراء التيه العربيّة. لم تنته الأمسية كما بدأت، لقد توغلت في الذاكرة أكثر مما يجب، أُطلقت سهام من قوس أحدهم ما لبثت أن ارتدّت إلى من أطلقها، وصار الصيّاد فريسة، فدماء شهداء تلّ الزعتر ليست للمساومة والبيع في سوق السياسة الرخيص، ووجهت أسئلة أجاب عنها آخرون بمنطق العارفين ببواطن الأمور والصيد في الماء العكر.

حان موعد العودة إلى حيفا، فغدًا ستكون وِجهتي القدس.

غادرت الناصرة ليلًا إلى حيفا حاملًا في ثنايا قلبي حبًّا لهذه المدينة لما تحمله من قدسيّة ومكانة في القلوب لتلك الأماكن التي زرتها ولأناس قابلتهم، شعرت فيها أنّ الوقت منحني الحيّز الكافي لجعل كل لحظة قضيتها هنا مشبعة بغنىً جعلني أكثر إلمامًا بفهم أهلنا في الداخل وتعلّمت منهم أشياء كثيرة، وأنا اتسائل كيف لي ان أكون قريبًا هكذا لو لم أكن بعيدًا!؟، فالمنفى يشعرنا دائمًا أنّ الوطن أجمل، وفي لحظة الاقتراب تنصهر النفوس وأصبح جزءً من كُلٍ يشبهني وأشبهه. وها هي الكلمات تعود من غربتها تحاول ترجمة المشاعر بحلوها ومرّها، فهنا على أرض الوطن من يفهمها ويفك ألغازها فهذا هو المرتجى وذروة المنى.

الحلقة التاسعة

«بيت المقدس»

" بيت المقدس "

يومٌ تشرينيٌ آخر هاربٌ من بقايا صيف ؛ ما أجمل ان تبدأ يومك برؤية حيفا وبحرها. اليوم سنتوجّه مع عزيز والشاب محمد الزعبي الذي تطوّع مشكورًا لهذه المهمّة إلى بيت المقدس عبر غور بيسان، ذلك الممّر الطبيعيّ الذي يربط مرج بني عامر بوادي الأردن، تلك المنطقة الغنيّة بمياهها وينابيعها، وهي ممّر مهمّ للطيور المهاجرة من شمال أوروبا. «الغور» هي كلمة من أصول كنعانيّة ومعناها «النازل»، وللغور مكانه هامّة في التاريخ العربي عبر العصور، سكنته وما زالت قبائل عربيّة كثيرة منها قبائل الصقر والعدوان، والكثير غيرها وخاصة «الغوارنة» الذين كانوا يقطنون منطقة الحولة وكانوا يزرعون فيها الحبوب والخضار ويقيمون في بلدة الخالصة التي دمرتها العصابات الصهيونية عام 1948 وبنوا على أنقاضها مستعمرة «كريات شمونة»، بالاضافة إلى قرى أخرى في منطقة الحولة مثل اللزازة والخصاص. هُجّر معظم أهاليها إلى لبنان، أقاموا في مخيم النبطيّة، وقسمٌ آخر كان يشكّل جزء مهمًا من أهالي مخيّم تلّ الزعتر. لعب «الغوارنة» دورًا بطوليًا كبيرًا في معركة حصار تلّ الزعتر واستشهد منهم الكثير دفاعًا عن أهالي المخيّم .

بدأت الطريق في أوّلها كثيرة الخضرة والأشجار من على الجانبين؛ إنّها بيسان، ذلك الإسم المزروع في الذاكرة منذ الطفولة، اسمٌ كان يتردّد كثيرًا بيننا نحن لاجئي الشتات في لبنان على وقع ذلك الصوت الفيروزيّ الملائكيّ الذي كان يأخذنا بعيدًا ويحلّق بنا الى البيّارة الجميلة التي ينام في أفيائها نيسان. ما أعذب عندما تنادي فيروز: خذوني إلى بيسان... كنّا نشعر أنّنا كلّنا من بيسان... كلمة بيسان المشحونة بهذا الكمّ الكبير من الحنين لوطن نعشقه، إختصرته فيروز بالبيّارة وكل شيئٍ كان؛ باب وشبّاكان، بيتنا في بيسان. هذه المدينة الجميلة هي من أقدم مدن فلسطين اُحتلت عام 1948 وطُرد أهلها منها واستوطنها مهاجرون يهود.

ومع نزولنا أكثر فأكثر على طريق الغور بدأت حرارة الجو في الارتفاع، طغت

على المشهد ملامح جفاف حادّ ولونان لا أكثر: زرقة السماء، تربةٌ مالحة يغلب عليها اللون البنيّ الفاتح الضارب قليلًا إلى الحمرة. لا يخلو المشهد من أشجار النخيل الصامدة والصابرة وهي تقاوم الجفاف، ترافقنا طوال الطريق على شكل جماعات، كأنّها واحات متناثرة في ذلك الغور القاحل.

مررنا على أريحا ولم ندخلها وانعطفت بنا السيارة يمينًا إلى القدس، يتمادى المشهد الصحراويّ بحرارته وجفافه، وعلى بعد حوالي 28 كلم من القدس، إنعطفنا يسارًا على طريق شبه وعرة المسالك أوصلتنا بعد حوالي كلم الى «مقام النبي موسى». توقّفنا عند المدخل أمام مقهى شعبيّ تحت شجرة وارفة الظلال وكراسي مبعثرة عبثت بها أيادي بعض من زاروا المكان؛ المقام مكوّن من طابقين، في الطابق الأوّل قبر النبي موسى على شكل تابوت كبير مغطّى بقطعة قماش خضراء وموّشّى بكتابات مذهّبة تدلّ على الضريح، مع آيات قرآنية، وفي الباحة الكبيرة آبار للماء، وإسطبلات للخيل في الجهة المقابلة؛ أمّا الطابق العلويّ فهو مكوّن من غرف كثيرة تعلوها القباب البيضاء على الطراز المملوكيّ، أثار إعجابي طابع الهندسة المعماريّة ونظام التهوئة الطبيعيّة والتي تشعر بها من خلال نسمات الهواء التي تلطّف من حرارة الجو. بُني هذا المقام في عصر القائد المملوكيّ «الظاهر بيبرس» ويعتبر مكانًا مقدسًّا لأنّ النبي موسى قد دفن هنا كما يقول من دوّنوا الأخبار؛ خلافًا لرواية العهد القديم (سفر التثنية) أنّه لم يدخل فلسطين ولكنّه مات في جبل «نيبو»، في الأردن الحاليّ. حول المقام وعلى تلال قاحلة تتناثر مجموعة من القبور بأشكالها المختلفة، يُدفن فيها من يوصي بذلك. في كلّ عام يقام احتفال بموسم النبي موسى في شهر نيسان متزامنًا مع أعياد الفصح . تقول الروايات أنّ من شجّع الاحتفال بموسم النبي موسى عليه السلام، مع أعياد الفصح كان ذلك لتخفيف الضغط والازدحام على مدينة القدس في فترة الأعياد؛ وقد شهد عام 1920 إنتفاضة موسم النبي موسى وقامت مظاهرات حاشدة في مدينة القدس، مطالبة بإلغاء وعد بلفور ووقف الهجرة اليهوديّة والاستيطان. حدثت اضطرابات بين اليهود والعرب سقط فيها قتلى وجرحى من الطرفين، وقام المندوب السامي البريطانيّ في ذلك الحين «هربرت صمويل» بإعتقال عدد من الزعماء الفلسطينيّين.

تابعنا سيرنا غربًا باتّجاه القدس، وصلناها عصرًا.

شعرت بالرهبة وأنا أدخل البلدة القديمة من ناحية باب العامود وجدت نفسي، فجأةً في عالم آخر، أصوات الباعة يمتزج بأحاديث السواح ورائحة التوابل والبهارات تختلط بروائح العطور وتنقلني إلى ماض بعيد، شعرت بغصة ومرارة وأنا أعبر تلك الطرقات الحجريّة الضيّقة، عادت بي الذاكرة إلى تلك الصور العالقة في ذهني وصوت المذياع وهو يعلن عن سقوط مدينة القدس في ذلك الحزيران المقيت. إسترجعت صور النازحين على الجسور المدمّرة يعبرون نهر الأردن حاملين أطفالهم وبعض من أمتعتهم، ووجوه متعبة وحزينة من شدّة الانكسار، صورة تكرّر مشهد النكبة الاولى؛ وفي زحمة ذلك الضجيج من حولي، وحده الصوت الفيروزيّ كان ينساب كئيبًا في داخلي: «مرّيت بالشوارع... شوارع القدس العتيقة... قدّام الدكاكين ال بقيت من فلسطين»... كلمات تبعث على الحزن العميق، ولكن ما جئت هنا لأحزن، بل جئت لأستمدّ العزيمة والأمل، جئت لآخذ نصيبي من الإنتماء لهذه المدينة الزاخرة بقدسيّتها... تجوّلتُ في الوجوه الحائرة للباعة وأصحاب الدكاكين، فأراها تائهة في وجوه المارّة من السيّاح والمتسوّقين تفتّش عمّن يشتري؛ حدّثني من إبتعت منه أثواب فلسطينيّة أنّ الحال لم تعد كسابق عهدها، فهناك يدٌ تضغط على عنق المدينة ويدٌ تمتدّ إلى جيوب أهلها. تابعنا طريقنا تحت تلك الأقواس الحجريّة المعلّقة فوق أسواقها، حتى وصلنا إلى أحد أبواب المسجد الأقصى... أوقفنا جنود مدجّجين بالسلاح وبعد أن دقّقوا في هويّاتنا؛ ولجنا الباحة وإذ بالقبّة الذهبيّة؛ قبّة الصخرة تنتصب أمامنا متوهّجة وبكلّ روعتها؛ إنتابني شعورٌ غريب سيطر على جوارحي، فيه الكثير من الخشوع وهدوء النفس. إنّها ليست المرّة الأولى التي أزور فيها القدس. سمعت سابقًا عن ما يُسمّى «متلازمة القدس» عند بعض زوّارها وخاصّة المتديّنين منهم، حيث يصابون بإضطرابات عقليّة وهيجان نفسيّ، ومنهم من يظن ويتخيّل أنّه يعيش في زمن السيد المسيح عليه السلام، وهذا ما حدث خلال زيارتي عام 2000 قبل الإنتفاضة الثانية بأيام قليلة، كنت من ضمن مجموعة من الأطبّاء النرويجيّين؛ أصيب أحدهم بهذا العارض –وهو من أصول باكستانيّة– أدّى إلى هياج نفسيّ كبير عند رؤيته قبّة الصخرة، لم نستطع السيطرة وتهدئته إلّا بصعوبة. قبّة مذهّبة تعلو جدران زرقاء مصنوعة من القيشانيّ بشكل ثمانيّ الأضلاع، تُعطي للمكان رمزيّة وقدسيّة. تحت هذه

القبة تقع الصخرة التي عرج من عليها النبيّ العربيّ محمّد (صلى اللّه عليه وسلّم) إلى السماء... حسب القرآن الكريم في قصّة الإسراء والمعراج؛ وأمّا أتباع الديانة اليهوديّة فيعتبرون حسب رواية العهد القديم أنّه جبل الهيكل؛ وعلى مرمى حجر تنتصب كنيسة القيامة، سُمّيت الكنيسة بهذا الاسم نسبة لقيامة يسوع عليه السلام من بين الأموات في اليوم الثالث بعد موته على الصليب بحسب العقيدة المسيحيّة، وتعتبر هذه الكنيسة من أكثر الكنائس قدسيّة في العالم المسيحيّ. واعجباه!!... بقعة ضيّقة تحوي مقدّسات الديانات السماويّة الثلاث، مما جعل القدس سبب الحروب والصراعات على مدى العصور.

تجوّلنا في الحرم القدسيّ وسرنا باتّجاه المسجد الأقصى، القبلة الأولى والثالث من حيث القدسيّة بعد الحرم المكيّ في مكّة المكرّمة والمسجد النبويّ الشريف في المدينة المنوّرة.

دخلنا المسجد مع صلاة العصر، تجوّلنا بداخله حتى المنبر، وفي حديث عابر حمل عنوان إستشارة طبيّة مع أحد حرّاسه، الذي قدّم لي بعدها مفتاح المسجد، لأحظى بصورة تذكاريّة مع المفتاح. خرجنا من المسجد باتّجاه الجزء الجنوبيّ من صحن قبّة الصخرة، لعلمي المُسبق أنّ هناك مصطبة يقوم عليها نصبٌ تذكاريّ لشهداء مجزرة «صبرا وشاتيلا». النصب عبارة عن عامود من رخام مستدير الشكل وغير مكتمل، جزئه العلويّ قُطع بشكل مائل وقد كُتب عليه النصف الثاني من آية قرآنية: «وَمَن قُتِلَ مظلومًا فقد جعلنا لوليِّهِ سلطانًا فلا يُسرف في القتلِ إنّه كان منصورًا»(الآية 33 سورة الإسراء). قرأنا الفاتحة على أرواح الشهداء وغادرت المصطبة بشعور مزدوج فيه الكثير من الأسى والحزن والسرور، حزنًا على من إستشهدوا أبرياء ومظلومين في مخيّمات الشتات، والسرور للوفاء والعرفان لهم في واحدة من أكثر بقاع الارض قدسيّة.

أعذريني يا زهرة المدائن... كل لحظة على أرضك وفي شوارعك العتيقة منحتني الكثير مما أشتهي، على جدرانك الحجريّة قرأت أحلامي بالعودة، شعرت أنّ ما يجري بعروق أهلك المرابطين يمدّنا بقوّة الحقّ. من هنا أرى دوحة المستقبل وهي تنمو وتتكاثر أغصانها، لكنّ ثمارها لم تنضج بعد... كلّما زرتك أشعر بأنّ الوقت يداهمني، هل تعيشين خارج الوقت، أم أنّ عقارب ساعتك أسرع ممّا

يجب... لقد عرفت الآن لون جدرانك وجمال الأقواس فوق أسواقك. أكاد لا أسمع وقع خطواتي على شوارعك الحجريّة القديمة، وكأنّ قدماي لا تلامسان الأرض وأنا أتحرّك بين الواقع والخيال، أحسّ بوقع خطوات التاريخ ترافقني، وأكاد أشعر أنّ جدران البيوت الحجريّة وتلك الشرفات المتناثرة فوق البيوت تكلّمني وتحدّثني عمّا يحدث هنا. دعيني أبوح لك بالحقيقة: إنّك لطالما لعبتِ دورًا في تشكيل حياتنا وتنظيم وعيِّنا منذ الطفولة وبدايات الوعي، لم تُشعرنَا أبدًا فكرة القداسة بالخوف والرهبة، بل منحتنا الأمان والسكينة، وما المسافة بين حيفا والقدس إلّا مسافة وجدانيّة تختزل الجغرافيا والزمن. وأنا أغادر القدس مودّعًا، إلى حيفا التي أدين لها بأوّل نفحة من هوائها والتي منحتني الحياة، وهذا ما يخفّف من لوعة الفراق لهذة القطعة الغالية من أرض الوطن.

وتحضرني أبيات شعرٍ للشاعر تميم البرغوتي:

متى تُبصِرُ القدس العتيقة مرةً

فسوف تراها العين حين تُريدها.

الحلقة العاشرة

مع شاعرة وفنّان في طمرة
بين «مار الياس» وطمرة 24/10

مع شاعرة وفنّان في طمرة
بين «مار الياس» وطمرة 24/10

حيفا مدينة مميّزة عن سواها من مدن فلسطين، ببحرها وكرملها، أن تشاهدها مرّة واحدة من أعالي الكرمل فذاك لا يكفي، ذلك المشهد البحريّ يأخذك بعيدًا ويطرح عليك الكثير من الأسئلة عن سرّ هذا الغزل الدائم بين بحرها في حركته الدائمة وأمواجه المتلاحقة وبين هذا الجمود الشامخ لهذا الكرمل الصامت. فلنصعد مرّة ثانية اليوم لسبر أغوار الكرمل بينما حيفا تقف بينهما في حيرة دائمة، تتلفّت ذات اليمين وذات اليسار، تسترقّ السمع لما يدور من حوار بين أمواج البحر وسفوح الكرمل. قادنا الصديق عادل بصحبة عزيز إلى أعالي الكرمل وحطّت بنا الرحال في ذلك الدير القديم «ستيلا مارس» او دير «مار الياس» للرهبنة الكرمليّة . في الداخل كنيسة غاية في روعة الفنّ المعماريّ، و«ستيلا مارس» تعني «نجمة البحر»، لقبٌ قديم للسيدة مريم العذراء عليها السلام. ولمار الياس «الخضر» مكانة خاصّة عند أهالي حيفا والجليل فلا يُمكن أن تذكر حيفا بدون أن يُذكر «مار الياس» الذي يتمتّع بمكانة واحترام كبيرين عند كافّة الأديان والطوائف. يحتفل الحيفاويون وأهالي الجليل سنويًّا وبالعشرين من شهر تموز من كل عام بعيد مار الياس «الخضر»، وله رمزيّة جامعة لكل الطوائف؛ جاء ذكره في سورة الكهف بالقرآن الكريم، عن ذلك «العبد الصالح» ولقائه بالنبي موسى عليه السلام. في أسفل المنحدر الشماليّ للكرمل على ارتفاع حوالي 50 مترا هناك مغارة مشهورة وتعدّ مقصدًا جذّابًا للزوّار من كلّ الديانات، إنّها مغارة «الخضر» والتي هي مغارة «ايليا» وأطلق عليها اليهود بعد عام 48 إسم مغارة «إلياهو» ويُذكر أنّ السيدة مريم العذراء قد زارت المغارة مرّات عدة، وتُسمى مغارة الأنبياء. كانت عائلة الحسن الحيفاوية (والتي ينتمي لها القادة خالد الحسن وأخيه هاني الحسن) مسؤولة عن رعاية المغارة والمقام

حتى عام 1948. (يحضرني هنا مداخلة القائد المرحوم خالد الحسن في دورة المجلس المركزيّ لمنظّمة التحرير عام 1991 حين قال: «أنا خالد الحسن ابن حيفا، اذا فقدت حقّ العودة وبالتالي أملي بالعودة، شو بدّي فيكم.. أنا واللّه عندي حيفا والقدس زيّ بعض لأنّ كل فلسطين مقدسة» وتبعه تصفيق حاد). بعد عام 1948 حوّلها اليهود إلى «مغارة إلياهو» وللخضر قداسة كبيرة عند طائفة الموحّدين الدروز.

لمار الياس «الخضر» مقامات عديدة في فلسطين وبلاد الشام والعراق وإيران. أذكر أنّه في بيروت بمنطقة النهر بين نهر بيروت والميناء هناك مقام للخضر أقيم عليه جامع سُمي جامع الخضر، وأنّ الخليج الصغير ببيروت حيث الميناء يسمي خليج «مار جرجس».

أنهينا جولتنا في منطقة الدير وداخل الكنيسة وتوجّهنا إلى «البانوراما» حيث بدت لنا حيفا بكل تفاصيلها في ذلك اليوم المشمس والذي منحنا رؤية الزرقتين: زرقة السماء الصافية، وزرقة البحر الهادئ. بعد جولة في أعالي الكرمل عُدنا أدراجنا إلى الهدار. تنتظرنا دعوة لزيارة مدينة طمرة.

كان للدعوة والزيارة لبيت الصديقة الشاعرة نهاية كنعان عرموش وللفنّان التشكيليّ أحمد كنعان معنىً يتجاوز المجاملات المألوفة لما يحمل في طيّاته من علاقة وجدانيّة والرابط الأساسي فيها هو صديقي ورفيقي في زمن الحصار وبعده – الدكتور عبد العزيز اللبدي – حيث نُسِجت بيننا علاقة وجدانيّة مميّزة ألقت بظلالها على من نحن في طريقنا إليهم، فهو خال الشاعرة والفنّان وهما اللذان عاشا لحظات الحصار بدقائقه وثوانيه في تلك الأيام، وكانت الشاعرة نهاية قد ألقت قصيدة مؤثّرة في اُمسية الناصرة عن تلّ الزعتر ومعاناة أهله. وصلنا بعد الغروب إلى أطراف بلدة طمرة حيث كان في استقبالنا الصديق أحمد كنعان الذي أخذنا لجولة في معرضه الدائم، في فناء المعرض تنتشر الكثير من التماثيل والأعمال الفنيّة، وفي الداخل كانت هناك اللوحات الفنيّة التي تعكس إنتماء هذا الفنّان الكبير لتاريخه، بقديمه وحديثه، والتصاق أعماله بالتاريخ منذ الكنعانيّين إلى صلاح الدين حتى عصرنا الحاضر. لاحظت أنّ للفارس دور مركزيّ في أعماله النحتيّة تجلّى باستنساخ الفارس في منحوتاته

ولوحاته، معظم لوحاته تلخّص حياة شعبنا بأفراحه وأتراحه؛ وأكثر ما جذبني وأثار إعجابي وتأثّرت به هي تلك المجموعة من اللوحات حول اللاجئ وهو يدير ظهره للناظر، تمامًا كحنظله ناجي العلي، أحيانًا كفرد، وكمجموعات في أحيان أخرى. لوحات أخرى تعصرنا ألمًا عن «المقيمين غير الشرعيّين» وهم يبيتون في العراء تحت الأشجار جالسين أو مستلقين على ما يشبه الفراش، وأفكارهم شاردة، تقفز فوق الحواجز إلى مِن حيث أتوا، إنّهم العمّال القادمون من الضفّة الغربيّة من أجل لقمة العيش للعمل سرًا، والذين هم مطاردين وملاحقين من الجنود الاسرائيليّين.

أمّا أعماله في النحت والتي شاهدنا قسماً كبيرًا منها في فناء المعرض، فهي جزء من أعمال كثيرة من منحوتاته موزّعة في عدّة مدن فلسطينيّة في طمرة وسخنين وأم الفحم وتمثال الفارس في المغار وغيرها وفي رام الله؛ وقد شارك في معارض عديدة، وأجمل ما شاهدت كانت تلك السفينة الفينيقيّة المحمّلة بالمفاتيح والتي ترمز إلى العودة. بعد هذه الجرعة الفنيّة الغنيةّ بكل ما هو فلسطينيّ، توجّهنا إلى منزل الشاعرة نهاية كنعان عرموش، مدرّبة تنمية بشريّة فخورة بما تقوم به في هذا المجال كفخرها بأشعارها.

استقبلنا زوجها عثمان عرموش بالترحاب حيث قضينا سهرة رائعة وكانت هناك عودة إلى الماضي، حيث كانت طفلة صغيرة أيام الحصار وكيف عاشت تلك اللحظات الصعبة وهي تحمل الكثير من تلك الذكريات وعن المعاناة التي عاشتها مع والدتها آنذاك وقد أضفى مروان كنعان على السهرة حيويّة الشباب الذي لم ينسى ما حدث في تلّ الزعتر سائلًا ومستفسرًا عن معاناة المحاصرين آنذاك. لقد نظمت نهاية الكثير من الأشعار الجميلة التي تفيض شوقًا وحبًّا لوطن جميل وحنين إلى ملاعب الطفولة حيث تقول في أحد أشعارها: إنّها ندمت كثيرًا على خطواتها السريعة التي نقلتها من عالم الطفولة إلى عالم الشباب. أهدتني ديوانين من تأليفها: «خيط عسل» و«ضفيرتان» كتبت في إحدى قصائدها:

مثقلون بالغربة
في وطن جميل وزاخر
بأشجار الصنوبر وأعشاش الطيور

بنظراتنا الزائغة نحوهما البحر
وسواحل مدننا المستعمرة

نعم، الغربة تثقل كاهلنا لولا هذا «الحبل السريّ» الذي يربطنا بالوطن، ولولا هذه الجذور الذاهبة عميقًا في هذه الأرض الطيّبة، وذاكرة متّقدة تستمدّ نورها من كلّ ما سمعناه منذ الوعي المبكّر عن وطن كنت أتوق لرؤياه، كنّا قد رسمنا له في خيالنا وأحلامنا صورًا جميلة، وجدته أكثر جمالاً ممّا تخيّلته مزدانًا بأهله الطيّبين، بالرغم ممنّ يحاول أن يسرق الهواء من أنوفنا، ويمنع الشمس عن حقولنا وكرومنا ويُعبث بتراب يحوي عظام أجدادنا ويصادر أحلامنا. ما أطول سنوات الغربة وقد سرقت منّي أجمل ما وددت أن أُحضره معي في طريق عودتي الكبرى للوطن. كنت أظنّ بعد طول غياب، مثقل بسنيّ الغربة، أنّ الأماكن كلّها متشابهة إلى أن كانت عودتي الصغرى، فأثارت في كوامن نفسي وجع الحنين المزمن، وأعادت لي تلك الأحلام الفتية تأخذني من يدي من على تلك الدروب الوعرة مرةً أخرى إلى دروبٍ تفوح برائحة الزعتر البلديّ وترسم طريقًا يُخرجنا من عتمة المنفى إلى نور الوطن الأبديّ.

الحلقة الحادية عشرة

بين عبلين «كلية مار الياس» وكابول

بين عبلين «كلية مار الياس» وكابول

الأيام تتسارع كأنّها دقائق... وشوقي كبير لرؤية المزيد من هذا الوطن المكبّل والذي أغواني بكلّ ما فيه من أمكنة جميلة وأناس طيّبين، أقف حائرًا وسط مشاعري المتوزّعة بين الحُزن والفرح،:

حُزني على مغادرتي الوطن بعد أيّام قليلة وفرحي بهذه اللحظات التي تنقلني وتحلّق بي إلى عالم الحلم.

إنّه يوم «عبلين». كان الصديق جوني قد إقترح عليّ اللقاء بمجموعة من طلبة كّلية مار الياس، وجدت ذلك ممتعًا ومثيرًا للفضول، إذ إنّها فكرة رائعة للتعرّف على جيل الشباب، جيل ما بعد النكبة لعلّه الجيل الرابع. هذا الجيل الذي ولد من رحم النكبة، تُرِك وحيدًا معزولاً عن محيطه العربيّ. كيف يفكّرون؟ ما هي تطلّعاتهم نحو المستقبل تحت وطأة القهر ممّن يحاول مصادرة أحلامهم وطموحاتهم وتلويث هوائهم باليأس وخنق روح الأمل عندهم؟. مَن هم؟ ماذا سأقول لهم؟ ماذا يعرفون عنّا نحن في مخّيمات الشّتات وفي المنافي البعيدة؟ هل سمعوا بمخيّم تلّ الزعتر؟. كلّ هذه الأسئلة جالت بمخيّلتي وأنا في طريقي إليهم، ومن على الطريق المتّجه من حيفا إلى عكا. إنعطفت بنا السيارة شرقًا على طريق شفاعمرو.

عبلين!! تذكّرني بالشهيد ممدوح رسلان الممرّض في الهلال الذي أُعدم بدم بارد على يد الفاشّيين هو ابن عبلين. أخبرني الممرّض عارف طه أنّ والدته من عبلين ووالده من ميعار.

عائلة النجمي في تلّ الزعتر أيضًا من عبلين، المرحوم راجي «ماجد» النجمي، وشقيقته أمّ العبد النجمي... التي كان إهتمامها كبيرًا بالمستشفى وبنا كأطباء وابنتيها، د. فاطمة النجمي التي كانت في ذلك الوقت من المتطوّعين في الهلال

الاحمر وأختها د. نوخا التي قابلتها هنا بعد 40 عامًا ﯾﮯ كفركنا... نعم إنّها التغريبة الفلسطينيّة بكلّ أبعادها التراجيديّة. وصلنا شفاعمرو ودخلنا ﯾﮯ متاهة شوارعها الضيقة، بين بيوتها الحجريّة، ولكن عزيز بمهارة العارف قادنا ﯾﮯ الطريق الصحيح وعند المستديرة ﯾﮯ مدخل عبلين بدأنا بالصعود؛ عبلين مرتفعة بعض الشيء وكلية مار الياس ترتاح على تلّة عالية سميت «بجبل النور» بعد تأسيس كلية مار الياس عام 1981، تيمُنًا بدور الكليّة لتكون مركزًا للاشعاع والنور. لعب المطران إلياس شقور دورًا كبيرًا ﯾﮯ تأسيس الكليّة ودعمها من خلال جولاته واتصالاته الخارجيّة. وتعتبر الكلية صرحًا علميًا مرموقًا ﯾﮯ الوسط العربيّ وبالمستوى العلميّ العالي لطلابها.

ركنّا السيارة على مدخل الكلية، وهناك على جدران المدرسة الإسمنتيّة الحياديّة اللون، أحسست أنّها ترحّب بنا، ومن خلال رسومات الزعماء نيلسون مانديلا، جيفارا وجمال عبد الناصر – كأنّها تعلن عن هويّة من هم داخل جدرانها. قطعنا الطريق إلى مكتب الإدارة عبر أسراب من الفتيات والفتية بزيّهم الموّحد وهم يملئون الساحة نشاطًا وحيويّة... لم أشعر مطلقًا بضجيج بقدر ما هي أحاديث متناغمة وضحكات شابّة عن أحلام قادمة وعن أيّام لم تاتي بعد، وحينها طغى على تفكيري ومشاعري مشهد وطن قادم، عماده هذا الجيل الذي يبثّ روح التفاؤل والأمل.

إستقبلنا الدكتور جوني منصور والأستاذ حنا الحاج؛ أخبرني د. جوني أنّ الحضور سيكون حوالي 150 طالبة وطالب من حوالي 26 بلدة وقرية من الجليل وأنّ اللقاء سيكون ﯾﮯ القاعة الكبرى ﯾﮯ الكنيسة. مرّة أخرى ما أجمل أن تكون دور العبادة حاضنة للعلم والثقافة. إلتقيت هناك بالكاتب والأديب المقدسيّ عادل سالم، ترافقه زوجته إيمان بدر وأحد الإخوة الأسرى المحرّرين – والذي كان قد تحدّث لاحقًا ﯾﮯ اللقاء عن أهميّة العلم والذاكرة الجماعيّة وقدّم درعًا تكريميًا «درع ديوان العرب» للدكتور المؤرّخ جوني إعترافًا وامتنانًا لدوره ﯾﮯ مجال الثقافة الوطنيّة وكتابة التاريخ ومن مقدّمته الرائعة والمميّزة – والتي ارتأيت أن أقتطف بعض ما جاء فيها، – قال عريف الاحتفال الأستاذ حنا الحاج موجّهًا كلامه لي:

«نوّثقُ كي لا ننسى وكي لا نُنّسى... هل الانسان مخلوق نسّاء؟... سُمّي إنسانًا

لأنّه ينسى... التاريخ يكتبه المنتصرون، ولكن هل معنى هذا أن يستكين الخاسر أو المهزوم؟. ويرضى بمصيره؟ وهل سيبقى المهزوم مهزومًا؟ هل كُتب على المهزوم أن يبقى خارج التاريخ؟ ألن يصبح يومًا صانعًا للتاريخ ليهزم هزيمته؟ هي تساؤلات قد لا تحمل إجابات، لكنها تنطوي على رغبات. شاهدًا كنت على ما كان يا دكتور عبر كتابك «يوميّات طبيب في تلّ الزعتر» على ما عاناه الفلسطينيّ في المخيّم. مخيّم حُوصرَ لأكثر من خمسين يومًا، ودمرّه لبنانيّون إنعزاليّين طائفيّون شاركهم وساعدهم ويسّر لهم الجيش السوريّ أن يحقّقوا ما يريدون، ووقف العرب والعالم. ينظرون وينظرون... هل شهادتك الكتابيّة تصويب أم اضافة؟»

بعد هذه المقدّمة الزاخرة بالعبر والتساؤلات، بدأت محاضرتي وأنا أنظر في وجوه وعيون هذا الجمع الكبير من طلبةٍ في ربيع العمر.

شدّني كثيرًا وأثار إعجابي إنضباطهم وقدرتهم العالية على الإنصات والإستماع. شعرت أنّ ما سأحدّثهم عنه كان محور إهتماماتهم، تابعوا بانتباه ما تحدّثت عنه: عن وضعنا المؤلم والمليء بالمعاناة في الشّتات وفي المنافي البعيدة، دعوتهم إلى الاستمرار في تحصيل العلم الذي هو أمضى سلاح، وإذا ما تابعوا دراستهم في بلد آخر فالعودة أجدى وأصوب حتى لا يصابوا بداء الغربة المزمن، وإنّ ظروف التعليم متوفّرة لهم هنا، أخبرتهم عن معاناتنا وعن ظروفنا الصعبة آنذاك للحصول على التعليم، وكيف أنّ اخوين أو ثلاثة كانوا يضحّوا من أجل أن يتابع أحدهم تحصيله العلميّ وإنني شخصيًّا إضطررتُ للانقطاع عن الدراسة ثلاث سنوات بسبب ذلك - وصيّتي لهم كانت بحجم طموحاتهم أن يتابعوا طريق العلم ويبقوا على أرض هذا الوطن وأنّ «الحجر بأرضه قنطار» وأنّهم ملح وخميرة هذه الأرض ومستقبلها. رأيت في عيونهم مستقبل الوطن.

كان اللقاء - المشبع بالمشاعر مع هذا الجيل الرائع - واحدًا من أهمّ لقاءاتي على أرض الوطن، فبقدر ما أوصلت لهم رسالة من مخزون الذاكرة الجماعيّة، بقدر ما أصبحت أكثر تفاؤلًا وأملًا بالمستقبل.

لقد كان الطريق إلى الوطن طويلًا ووعرًا مليئًا بالأشواك وقد أخذ منّي عشرات السنين حتى أصل اليه. عندما يصاب المرء بداء الغربة المزمن في الطفولة الأولى وقبل بدايات الوعي فذاك داء لا شفاء منه، حتى ولو عاد إلى الوطن لأنّ

عبقرية المكان والعلاقة به تفرض شروطها وتنسج وعيًا روحيًّا للطفولة وملاعب الذكرى. غادرت كلية مار الياس مع أفكاري التي ذهبت بعيدًا. إسترجعت ذكرى الطفولة، كنت كنبتةٍ زُرعتْ في أرض غريبة لا تتوفّر فيها ظروف النموّ الطبيعيّ.. أينما ذهبت يذكّرونكَ بغربتك أغبطني جدًا أنّ جزءاً من شعبنا لم يُصَب بداء الغربة وأنّ جيلاً ينمو ويترعرع على أرضه الطيّبة، سيكون نبتةً صالحة كزيتونة تعِدنا بثمار طيّبة حينما تحين مواسم الحصاد.

من ضمن برنامجنا لهذا اليوم دعوة لزيارة «مشروع حضارة» في كابول الذي أطلقته دار الأركان للإنتاج والنشر ومؤسسة المنار للتنمية على مستوى فلسطين والشتات وذلك لإعادة تشكيل القرية العربيّة والوطن بملامحها الأصليّة؛ وهذا المشروع الذي يعتمد على المجسّمات كأداة ناجحة لتجسيد الذاكرة البصريّة، يشكّل جزءً أساسيًا في حفظ الذاكرة الجماعيّة لشعبنا وهو مشروع يتصدى لكل محاولات محو وطمس الذاكرة الاجتماعيّة والعمرانيّة والثقافيّة لشعبنا.

كان في استقبالنا عند وصولنا الأخوة مصطفى حمود سكرتير مجلس كابول، كامل حسين مدير قسم المعارف في مجلس شعب، قاسم الخطيب، الأستاذ غازي شحادة، الصحفي محيي الدين خلايلة «مدير مؤسسة المنار»،المربي جهاد بقاعي، الشاعر علي القادري والصديق نهاد بقاعي «مدير دار الأركان للإنتاج والنشر». قام الأخ محي الدين خلايلة بشرح تفصيليّ حول المشروع من خلال مجسّم فنّي ثلاثيّ الأبعاد، قرية فلسطينيّة نموذجيّة ببيوتها وبيادرها وأهلها، الكنيسة والجامع وعرس في القرية موسم حصاد ومعصرة الزيت وبئر القرية الخ... إنّ أهميّة هذا المشروع كما خُطط له أن يكون، المدخل للطالب العربيّ لمعرفة تاريخة وجذوره الثقافيّة وكما عّرِفت أنّه سيصار إلى توزيع نماذج منه لعدّة مدارس ومؤسسات ثقافيّة في البيئة العربيّة، وخاصّة أنّ للمكان دورًا محوريًا في تعزيز الذاكرة وأمّا القرية فهي ذلك الحيّز المكانيّ للبيئة الشعبيّة بشكليها العام والخاص. إنّه مشروع رائع سيعطي الأجيال الشابّة قوّة دفع كبيرة لمعرفة ثقافتهم الضاربة جذورها في هذه الارض وهي ثقافة الآباء والأجداد وأنّهم لم يوجدوا من فراغ. و كما قال المرحوم الشاعر توفيق زياد: لنا ماض وحاضر ومستقبل. وخاصة أنّ هناك هيئة إستشاريّة من فنيّين ومؤرّخين وخبراء تشرف على المشروع وشكرنا الجميع

على هذا المشروع الحضاريّ وعلى حسن الاستقبال والضيافة وعلى الفرصة الرائعة التي أتيحت لنا لمشاهدة هذا المشروع الموجّه تحديدا للجيل الرائع والمشبع بالحماس وبالأمل الذي التقيت به في كلية مار الياس.

لم ينتهي برنامجنا لهذا اليوم عند هذا الحد، كانت هناك دعوة في المساء في عكا من زملاء واصدقاء د. سمير الخطيب وعائلته للاحتفال بعيد ميلاده داخل أسوار عكا، كانت سهرة جميلة إسترجعنا فيها سهرتنا الأولى في بيته في كفر كنا.

لقد مرّ هذا اليوم كخيطٍ رفيع ولكنّه بالرغم من ذلك فقد شكّل نسيجًا ربط الماضي بالمستقبل. شعرتُ فيه أنّ سُحب القلق قد غادرت سمائي، وبانت شمس الأمل في كبد السماء، نظرت إلى هذا الماضي المصاب بعدوى الغربة والذي حفر في قلوبنا مفهوم الانتظار المقيت، ورسم على وجوهنا معاناة النكبة المزمنة، ولكني في هذا اليوم شعرت أنّ هؤلاء الشباب والشابات قد شدّوا بسواعدهم أوتار قوسي المترهّلة حتى تصل سهام الأمل إلى المستقبل المنشود. ورأيتني أعجب من نفسي ومن صبري كيف تحمّلت هذا كلّه على مدى السنين الطويلة.

لقد نموا على الأرض الطّيبة، حليفتهم الأبديّة برغم من ذلك الجاثم على صدورهم يحاول خنق أنفاسهم. جيل شابّ ينمو في محراب العلم وجيلاً آخر يذّكّرهم... إنّهم لم يأتوا من لا شيء... وأنّهم أبناء حضارة لها جذورها في هذه الارض منذ آلاف السنين؛ ينهلون من ينابيع مدرّسيهم المتدفّقة وعيًا وعن تاريخ مسروق يسعون لإعادته إلى أهله الأصليّين وما مشروع «حضارة» إلّا فكرة رائعة تركز على الذاكرة البصريّة فهي الأقوى والأكثر ثباتًا في عقل الانسان.

حلّقتُ في فضاء المستقبل لأرى تلك الدوحة العظيمة الضاربة جذورها عميقًا في هذه الأرض، أغصانها في تشعّب دائم وقد بدت تلوح بين أغصانها بوادر ثمر، لا بدّ أن ينضج يومًا، وشعرت معها أنّنا إلى تحقيق الحلم أقرب، متمرّدين على قوانين عقوبتنا التي وصفها الراحل الشاعر معين بسيسو:

وعقوبة الفلسطينيّ الدائمة
كانت وما تزال النفي؛ النفي خارج أرضه
أن يخرج الفلسطينيّ من جسده

الحلقة الثانية عشرة

من عودة على طريق العودة
عكا– ام الفحم 27/10

عكا– ام الفحم 27/10

بعد نهارٍ مزدحم بالمواعيد واللقاءات، أخذني إلى المستقبل الواعد وأعادني إلى الماضي المتخم بالمعاناة كان لا بدّ لي من العودة إلى الواقع؛ وهكذا دُعيتُ إلى سهرة في مطعم هادىء على أحد أسوار عكّا، يطلّ على بحرها وبعضٌ من بحر حيفا، والكرمل بأنواره المتلألئة يلوح لنا من بعيد ويبدو مرتاحًا ويُلقي علينا السلام. صعدنا أدراجًا حجريّة ومررنا من تحت أقواسٍ حجريّة. سرنا على سور المدينة العريض حتى وصلنا مطعم «دنيانا». المناسبةً عائليّة ومجموعة من الأصدقاء يحتفلون بعيد ميلاد الدكتور سمير، ذكّرني ذلك بتلك السهرة الجميلة في كفر كنا في بيته العامر قبل أيّام. مجموعة من الأطبّاء وجميعهم من خرّيجي الاتحاد السوفياتي السابق.

كان الجو مشبعًا بالحنين والذكريات، دار الحديث عن أيّام الدراسة كما سمّوها «الزمن الجميل». تعّرفت بها على المخرج السينمائيّ الوثائقيّ باسل طنوس وزوجته إلهام دكوَر. باسل ينبض حيويّة، قريب من القلب لدرجة أنّني منذ قابلته أوّل مرّة شعرت بأنّني أعرفه منذ زمن بعيد. كان هناك د. معاوية، طبيب أسنان يدير عيادته الخاصة في حيفا، والذي من قبيل الصدفة عرفت أنّ صلة قرابة تربطه بعارف طه، أحد الممرّضين في مستشفى مخيّم تلّ الزعتر، كانت مناسبة مليئة بالمشاعر أن يتواصلوا في تلك الأمسية عبر الهاتف، وكان د. علي بدارنه الأخصائي في علم النفس السريريّ الذي يعمل في مركز الرازي للتأهيل النفسيّ وهو من عرابة البطوف، سعدت كثيرًا بمعرفته.

كانت هذه الأمسية إستمرارًا لتلك السهرة وكانت مناسبة للتوغّل في الماضي البعيد، ونبش ذكريات من الزمن الجميل... أيّام الدراسة التي لا تنسى عند كلّ من عاشها. كلٌ له قصته الخاصة والمغلّفة بالطرائف الشيّقة والتي لا تخطر على بال أحد. هكذا إصطحبتنا ذكريات الدراسة وأخذتنا بيدها بعيدًا، لكنّ بحر عكّا

في تلك الليلة الصافية الأديم أعادنا إلى حيث نحن... كأنّه كان يسترقّ السمع ويقرأ أفكارنا، ويقول لنا: ذلك زمن بعيد ولن يعود... أنتم في البلد الذي تحبّون وأنتم في حضرة عكا، ما بالكم تهرولون إلى ذكريات لا تجدي نفعاً؟ كأنّه يرسم لنا حدودًا مقدّسة لا يمكن تخطّيها. في الليل تغيب الألوان عن المشهد،ألتفت إلى البحر الهادئ وأضواء الكرمل في متناول الرؤية. تسافر أفكاري شمالاً بعد أن لامست خدّي نسمة قادمة من الشمال وكأنّ رائحة المجازر قد بلغت أنفاسي، وكأنّها تحمل آهات وأنين من هم هناك حيث ألآلاف من أهلنا يتكدسون فوق بعضهم في مخيّمات الشتات، أتذكّر جولتي في الجليل الواسع والقرى المهجّرة والأراضي الشاسعة! وأتسائل: لماذا كلّ هذا؟ هناك متّسع للجميع لو كانت قوّة الحقّ أقوى من حقّ القوّة لما حدث ذلك. لماذا يجب أن يكون أحدنا رابح والآخر خاسر؟ وهناك الفرصة أن يكون كلانا رابحان. إستولت الدهشة على من أجالسهم، ولسان حالهم يقول: عُد إلينا يا طائر الشمال؛ لم أعد لهم لأنّني لم أغادرهم، إنّما هو داء الغربة المزمن، أحسست أنّني الظامئ الوحيد بين المرتوين من مياه هذا الوطن، أحاول أن أتنفّس ملئ صدري هذا الهواء المشبع برائحة الوطن كزوّادة أحملها معي إلى المنفى، كأنّ الغربة أصبحت وطني بعد طول الغياب وتصاريف الزمن، ها أنا الآن على أرض الوطن ولكنّ بعودة مؤقّتة، لقد أصبح كلّ شيء في حياتنا مؤقّت ويخضع لشروط الإنتظار ولكن ما لنا من كلّ ذلك، دعني أستمتع بكلّ دقيقة على أرض الوطن ومع الأصدقاء الرائعين الذين وهبوني حضنًا دافئًا وفي قلوبهم وجدت الملجأ الأمين. عادت عكا وبحرها وحكايا شيّقة عن الوطن لتفرض نفسها على سهرتنا التي بدت وكأنّها تقارب نهايتها، نهضت ومشيت على تلك الأسوار، ألمسها بيدي كأنّي أتأكد من متانتها وهي التي هزمت نابليون ومن قبله، أحسّ صلابة الطريق الحجريّة تحت قدمي تعطيني مزيدًا من الأمل الذي تجرّعته في كلية مار الياس على يدي شبابها وذلك الذي أرتشفته في كابول علي يدي من أشرفوا على مشروع «حضارة»، كان وقع خطواتي وانا أسير على ذلك السور كما لو أنّني أخطو أوّل خطواتي على طريق العودة الكبرى. لم أعد هذا المساء إلى حيفا بل إلى كفر كنّا مع د. سمير والدكتورة نوخا. غدًا سنتوجه إلى المثلّث، إلى ندوة أم الفحم.

يوم 27/10

أفقت صباح هذا اليوم ومن على شرفة حديقة المنزل أطلّت عليّ قرية طرعان في الجانب الآخر من الطريق الرئيسيّ بين طبريا والناصرة. لماذا طرعان؟ قبل مجيئي إلى الوطن كانت أمّ عرسان في زيارة ابنتها، صديقتنا وجارتنا في النرويج «آمنة»، وهي ممرّضة تعمل في مستشفى المحافظة المركزيّ القريب من بيتنا، وكانت هناك أحاديث كثيرة وشيّقة عن الوطن. عند سفري ألحّت أن أقوم بزيارتها في طرعان وتدعوني لأكلة «علت»، أكلتي المفضّلة، وها هي طرعان على مرمى حجر ولا أستطيع تلبية الدعوة لضيق الوقت...

اليوم هناك ندوة مسائيّة في بلدة أم الفحم في المثلّث، هذه البلدة القائمة منذ فجر التاريخ من العصر الكنعانيّ وهي ثاني أكبر المدن الفلسطينيّة في الداخل بعد الناصرة، وجاء إسمها نتيجة شهرة أهلها على مدى العصور في إنتاج وتجارة الفحم لكثرة الأحراش والغابات في محيطها، وهي تقع في منطقة جبليّة مطلّة على وادي عارة، الممرّ التاريخيّ الشهير الذي كان ممرًا لمعظم الغزوات والفتوحات التاريخيّة في فلسطين. تعيش البلد في المدّة الأخيرة نهضة عمرانيّة وثقافيّة وإقتصاديّة. هي نبض الشارع الفلسطينيّ في الداخل، بلد المظاهرات والإحتجاجات على ممارسات الاحتلال.

تنظّم الندوة جمعيّة خرّيجي روسيا والاتحاد السوفياتي «السابق» وبمجهود من الدكتور زياد محاميد، الذي إفتتح الندوة وكان الحضور حسب ما قدّمهم الدكتور زياد على أنّهم نخبة من المثقّفين والفنّانين والمسرحيّين، قال أنّه قرأ «يوميّات طبيب في تلّ الزعت» في طبعتها الأولى في ذلك الحين وكانت موجودة في مكتبة الحزب، كما أنّها كانت موجودة في المكتبة في «لينينغراد» حيث أنهى دراسته في ذلك الحين.

تحدّث بعدها الدكتور عفو إغبارية، طبيب جرّاح وعضو سابق في الكنيست وتخرّج بنفس الفترة التي تخرّجت فيها من موسكو. تحدّث عن أهميّة اليوميّات كوثيقة يجب أن يطّلع عليها الجميع وخاصة الأجيال الشابّة كتجربة نضاليّة لأهالي المخيّم، وعن ظروف مماثلة عاشها مع زملائه الأطبّاء في أم الفحم خلال هبّة أكتوبر عام 2000 أيّام إنتفاضة الأقصى حيث حوصرت المدينة. تحدّثت

بعدها عن يوميّات الحصار وما قبلها. بعد الندوة كانت هناك جلسة ونقاش عُدت بعدها برفقة عادل وعزيز إلى حيفا. كم كان بودّي أن أرى أم الفحم وأهلها، وصلتها ليلًا ولم يتسنى لي رؤيتها والتجوال في شوارعها.

هكذا انتهت هذه الجولة من الحديث عن سيرة المخيّم وعن أهله ومعاناتهم، فالحديث عن معاناة شعبنا في الشتات، ينتقل من جيلٍ إلى جيل عبر أمانة حفظنا للذاكرة الجماعيّة، وهو لا يزال نفس الدرس الذي ينتقل عبر الأجيال والذي سيؤدّي لنفس الهدف، نخرج من هذا كلّه للإستفادة من الدروس والعبر وليس للبكاء على الأطلال. كي تنتقل حكاية تلّ الزعتر من إطارها الخاصّ لتكون جزءاً من الإطار العامّ ورافدًا من روافد النضال الفلسطينيّ من أجل عودة تنهي معاناة مئات الآلاف من أهلنا في الشتات والمنافي البعيدة.

إنّ الوجع الفلسطينيّ المزمن حكاية لا تنتهي إلّا بالعودة، والعودة تحتاج لزوّادة حقيقيّة من الذاكرة التي تجعل من الفكرة عملًا وذلك ما يؤدي إلى الهدف وأصعب ما في ذلك هو معالجة داء الغربة المزمن الذي يسكننا بدواء ناجع إسمه الذاكرة الجمعيّة والمطعّمة بوعي الجيل الشاب، هذه الثنائيّة ستسترد بالتأكيد حقًّا لن يضيع بالتقادم. تحضرني هنا كلمات معبّرة عن واقعنا للراحل محمود درويش:

«لولا الحنين إلى جنّة غابرة
لما كان شعرًا ولا ذاكرة ولما كان للأبديّة معنى العزاء».

الحلقة الثالثة عشرة

عودة الى الجذور

عودة الى الجذور

لقد حاولت الغربة المزمنة دائمًا العمل على تشظّي فكرة المكان وتحاول جاهدة القضاء على ذاكرة المكان. الأماكن أصبحت كمحطّات القطار ننزل فيها لفترة، ونصعد ثانية في قطار آخر إلى جهة أخرى، حاولت استحضار الزمن لإستحضار المكان، ولكنّ عائلتنا وأنا لم أكن بعد في دائرة الوعي. رُسمت صورة المكان في ذاكرتي من حكايا الوالد والوالدة والأخ الأكبر الذي كان آنذاك في دائرة الوعي في الثانية عشرة من عمره. كان هناك شوق مزمن ودفين لرؤية المكان الذي ولدت فيه. اليوم سأكون في زيارة لآخر من تبقّى من عائلة عراقي على أرض الوطن، معظم أبناء العائلة هُجّروا إلى لبنان بعد سقوط حيفا، لقد كانت خالتي مع أولادها الوحيدة من العائلة التي بقيت على أرض الوطن، وأبعدت من عرب الرمل – التي كانت تابعة لحيفا في ذلك الوقت- إلى حيث هم الآن في طمرة. اليوم زُرت الحاجّ عوَض ابن خالتي وهناك كان لقاءً مع عائلته، أبنائه وأحفاده، شعرت وقتها أنّه مهما بعدنا عن الوطن ما زالت الجذور حيّة. بعد جلسة تبادلنا فيها الحديث والذكريات الوجدانيّة، حيث أظهروا كلّ ما عندهم من الخصال الطيّبة التي ترافقهم كل هذه السنين الطويلة وفوجئت بالحاج عوض يقدّم لي نسخة قديمة من ملحق الاتحاد الثقافيّ كان قد إحتفظ بها طوال هذه الأعوام، تعود إلى عام 2001 وذلك عندما نُشِرت اليوميّات بمناسبة الذكرى الـ 25 لمجزرة تلّ الزعتر. رافقني د. طلال وصالح، حفيد خالتي، إلى ذلك المكان حيث كانت قرية «عرب الرمل» وهي منطقة خصبة وغنيّة بالمياه إلى الشمال من كريات موتسكن، على طريق بيروت – حيفا، وكانت العائلة قد حصلت على حكمًا مبدئيًّا بملكيّة الأرض، وكان للمجلس الإسلامي الأعلى حصّة في تلك الأرض.
أُقيم على جزء من أرضنا معسكر للجيش البريطانيّ كان قد إستأجرها من العائلة؛ وسأتحدث في مناسبة لاحقة عن أصول العائلة التي مارست الزراعة وتربية المواشي في تلك المنطقة لعقود طويلة، ولا زلت أذكر تلك القصّة التي كنت

أسمعها من الوالد عن «موسى شير»، ذلك السمسار اليهوديّ الخبيث، مندوب الوكالة اليهوديّة، الذي حاول مرارًا إغراء الأهل بمبالغ طائلة لبيع الأرض وكان يُردّ على أعقابه حتى أنّه في إحدى المرّات طُرد شرّ طردة ولم يعد الكرة مرّةً أخرى.

لم يدُر بخلدي أبدًا لماذا هذه العلاقة الوجدانيّة مع شجرة الكينا إلّا حينما وقفت هناك على تلك الأرض الغنيّة بأشجار الكينا التي تقف شامخة متراصّة الصفوف، لا تُحاول مخاطبة الموجودين من عليائها وكأنها تنتظر أبنائها الغائبين، طال إنتظارها لأهاليها المشتّتون في المنافي البعيدة في كلّ أصقاع الأرض. كانت علاقتي بشجرة الكينا منذ الطفولة لها مكانة خاصة في وجداني أينما شاهدتها، كنت أقترب منها وألامسها، فهي بعد شجرة التين أوّل ما وقعت عليها عيناي، كانت علاقة غير عاديّة، تأخذ طابعًا رومانسيًا... تلك الشجرة التي كانت تقف وحيدة على مرمى حجر من بيتنا في بيروت، كانت دائمة الخضرة بأوراقها الأنيقة التي ترسل حفيفًا له إيقاع الموسيقى عند هبوب النسيم، أمّا جذعها العريض الأملس فكان كحضن يتّسع لكلّ همسات الشباب والصبايا وعلى جذعها العريض أسماء محفورة ورسائل حبّ قصيرة وحكايا مشفرّة ورموز تعبّرُ عن مشاعر وأحاسيس تركها كل من مرّ من هنا، على مسافة قريبة كان هناك صف منتظم من أشجار البتولا - ذات الجذوع الرشيقة البيضاء - في بستان جارنا الأرمنيّ العجوز «سركيس» قيل أنّه أحضرها «شتلات» من أرمينيا لعلّه يستعيد ذكريات شبابه عند رؤيتها.

والكينا كالبتولا تعشق التربة الغنيّة بالمياه. وإذا كان موطن البتولا شمال الكرة الأرضيّة فشجرة الكينا أتت من أستراليا ومنها ما يفوق الستمائة نوع، فوائدها كثيرة تنقّي الهواء، ومن أوراقها ولحائها تُصنع الكثير من الأدوية. هنا عرفتُ سرّ تعلّقي بشجرة الكينا. رأيت النور الأوّل هنا، وكان أوّل هواء يدخل رئتيي هواءً مشبّع بشذاها. تجوّلنا في المنطقة التي تغيّرت معالمها كما عرفت من مرافقي، وهي الآن منطقة عسكريّة لا يُسمح بالتصوير قُربها. في لحظة وجدانيّة مليئة بالحنين، وقبل مغادرتي هذه البقعة الغالية، كانت مشاعري قد تجاوزت حدودها هذا اليوم. وجدت نفسي أنحني وألتقط حفنات من تراب الأرض، واقتطفت

بعضًا من الطيون الأصفر لترافقيني في رحله التيه المستمرّة وتعطيني بعضًا من الصمود في وجه الغربة، والتي أمنّي النفس أن لا تطول أكثر وأنا الذي أجد نفسي دائمًا على لائحة الإنتظار كباقي أهلنا في المنفى والشّتات. عُدنا مرّة أخرى إلى طمرة لألتقي بالجزء الآخر من العائلة، وهنا أيضًا ثلاثة أجيال، سعدت باللقاء مرّة اخرى بعائلة الدكتور طلال وزوجته خولة - ابنة ميعار المهجّرة وأولاده حسين وياسمين، وأخيه طالب وزوجته غدير. سمعت كلامًا عن وطن يشكّل لهم حالة عشق ويرسمون مستقبل الوطن بألوان التفاؤل وريشة الإصرار، وطنًا تسوده الحريّة والكرامة والعزّة. مرّةً أخرى عزيمة الشباب وقوّة الإرادة مدّتني بجرعة من الأمل بأنّ الغربة لن تطول. شعرت أنّهم يقرعون باب المستقبل بقوّة وكأنّ المستقبل غدًا. لقد إستأسدوا وشوّهوا المعالم وسرقوا لون الحنطة وابتدعوا للأرض أسماء لا تُشبهها والأرض لا تصغي إلّا لمن يناديها بإسمها الحقيقيّ ولا تُحبّ لغة الغالب والمغلوب.

في المساء كان لقاء في بيت الضيافة «الحكيم» في مدينة الناصرة مع مجموعة من المثقّفين والناشطين في مدينة الناصرة، أعدّت له ونظّمته العزيزة مها سليمان، تلك السيدة المليئة بالحيويّة والتي تدير «دارة المها للطباعة والنشر»، تشتعل حماسًا لعروبتها والعاشقة الولهانة للغة العربيّة، الحريصة على الإستعمال الصحيح للغتنا العربيّة بشكليَها المحكيّة والفصحى، لأنّ ذلك كما تقول يزيدنا إرتباطًا بعروبتنا وهويّتنا لأنّ اللغة هي الجامع الأساسيّ لشعبنا العربيّ الفلسطينيّ في الداخل وهي الحاضنة الأساسيّة لذاكرتنا الجماعيّة. كان لقاءً حيويًّا تحدّثت فيه بناءً على طلبهم عن مخيّم تلّ الزعتر والحصار وكان نقاشًا إستمرّ إلى ما بعد منتصف الليل، وحظيت منها بنسخة لكتاب «وإذا الموؤودة سُئِلت» لمؤلّفه الدكتور الياس عطاالله، الباحث في علوم اللسانيّات، كتابٌ غنيٌّ بمضمونه حول اللغة العربية.

عُدنا إلى حيفا ليلًا في ساعة متأخّرة، كان عزيز يقود السيارة، وكنت أودّ أن نصل بأسرع ممّا نحن عليه. كنت بحاجة للراحة أُمنّن النفس بنوم هادئ. تمدّدت على السرير تارة يداي على الوسادة خلف رأسي وطور أتقلّب ذات اليمين وذات اليسار ولكنّ التعب كان قد هرب منّي وغادرت نعمة النوم جفوني. سيطرت

تفاصيل ذلك اليوم المفعمة بالأحاسيس والمشاعر على أفكاري، بتّ أبحث عن أشيائي الأولى التي تركتها في طفولتي البعيدة، في ذلك اليوم لم أجد إلّا شجرة الكينا تلقي بظلالها على ملاعب الذكرى وأيام الطفولة، أعصر أفكاري، أحاول أن أبحث عن طفولتي قبل بداية الوعي الأوّلي وأحاول أن أقنع نفسي ولكنّي لم أفلح بالعثور على أي أثر على هذا الشاطئ برماله البيضاء وبين أزهار الطيون الصفراء وتحت ظلال أشجار الكينا الباسقة وأغصانها تتراقص مع وقع نسيم البحر.

بين بيروت وحيفا مسافة عمرٍ بحاله، سنوات كثيرة قضيتها متنقّلًا بين المدن، أبدّلها كما نبدّل ملابسنا. مبحرٌ في بحر الغربة المتلاطم، تكاد أشرعتي تتمزّق من كثرة المعاناة ومرارة الغربة، أنتظر هبوب ريحًا تدفع بشراعي إلى برّ الأمان. وها أنذا اليوم في عودة مؤقّتة على أمل العودة الكبرى.

شجرة الكينا... وفرقة الأناشيد التي كانت تصدح صباح كلّ يوم في مدرسة «نهر المقطع»، في الطابور الصباحيّ كنّا أطفالًا لم نبلغ الحلم، ننشد أنشودة أحببنا كلماتها وحفظناها عن ظهر قلب ولكن لم نكُن في تلك الأيام ندرك ما خلف تلك الكلمات من معنى، وكبرنا وبدأنا شيئًا فشيئًا ندخل دائرة الوعي والإدراك، نفكّر في معانيها ونقلّبها وأصبحت جزءً مهمًا من وعينا الوطنيّ، وربّما هذا الذي فكّر بها واختارها لنا الاستاذ الياس شحادة، مسؤول فرقة الإنشاد عرفنا فيما بعد أنّنا كنّا نلقي التحيّة والسلام كلّ صباح على هذه الأرض الطيّبة لعلّها تسمعنا. تلك كانت الأنشودة التي لا أعرف مؤلّفها ولكنّي أعشق كلماتها لما تعنيه من حبّ الوطن:

عليكِ منّي سلام — يا أرض أجدادي
ففيك طاب المقام — وطاب إنشادي
أحببتُ فيك السهر — وبهجة النادي
أحببتُ ضوءَ القمر — والكوكب الهادي
والليل لمّا اعتكر — والنهر والوادي
والفجر لمّا انتشر — في أرض أجدادي

الحلقة الرابعة عشرة

بين فنّانة مبدعة وترشيحا

بين فنّانة مبدعة وترشيحا

ثمة رجلٌ طيب سألني قبل أيّام في حديث عابر أنّه بعد أيام سيكون هناك إحياء ذكرى «يوم ترشيحا». هل ستحضر هذه المناسبة؟ إنّه الصديق باسل طنوس، أجبت دون تردّد: بالتأكيد سأحضر، بل أبديت رغبة شديدة بالمشاركة في هذه المناسبة الذكرى، ستكون مسيرة مشاعل ولقاء جماهيريّ في ساحة البلدة.

قبل هذا كانت دعوة ولقاء على غداء مع أيقونة فلسطينيّة، فنانّة مسرح المنولوج العكاويّة المبدعة سامية قزموز بكري. التقينا في «شواطينا»، مطعم هادئ، على شاطئ حيفا، في مكان يلامس أمواج بحرها مثل ما يقال بالدارج «على فقش الموج»، تلك الأمواج في حركتها الأبديّة تبدو كما لو أنّها في حالة ترحيب دائم بروّاد المطعم. كانت قعدة وجدانيّة تحمل في طيّاتها الكثير من الشجون، حرّكت المواجع. سامية وزوجها وعزيز وأنا تبادلنا أحاديث عن النكبة وأوجاعها، عن المنفى وقسوته، عن الغربة المزمنة، عن أوجاع وطن يفتّش عن أهله التائهين في أصقاع الأرض، يُعانون من مرض مزمن إسمه الغربة وعن متلازمة الإنتظار. دار الحديث حول دور الفنّ كوسيلة لإيصال الفكرة وفي حفظ الذاكرة الجماعيّة وهي التي كانت وما زالت نجمة ساطعة في سماء فلسطين، حملت «مونودراما الزاروب» وطافت بها في مختلف العواصم والمدن الكبرى لتروي قصّة النكبة وأوجاع الشتات وسفر النكبة والآم الرحيل القسريّ، فأسالت دموع الكثيرين وأبكت قلوبهم. سامية تعتزّ جدًا بهذه المسرحيّة وتعتبرها هويّتها الشخصية؛ ترسم واقع النكبة بلغة فنيّة راقية وأسلوب السهل الممتنع الذي دخل قلوب كلّ من شاهدها. يا للدهشة والمصادفة!! عندما علِمت بأنّني سأشارك مساءً في ذكرى ترشيحا، أخبرتني أنّها شاركت في الذكرى السابقة في ترشيحا بفقرة من المسرحية، عن «أم سليم البيك الترشحانية» وابنها في مخيّم النيرب قرب حلب.

كان لقاءً قصيرًا بالواقع الزمنيّ، لكنّه امتد عبر كل سنوات النكبة، سِرنا قليلًا

على شاطئ البحر، وعكا تبدو لنا من بعيد فخورةً بابنتها التي نسجت من زواريب حاراتها القديمة عملًا دراميًّا خاطبت به العالم وجسّدت الوجع الفلسطينيّ المستمر.

ودّعتها على أمل اللقاء ثانيةً، فلقاءٌ واحد مع هذه الفنّانة المبدعة لا يروي ظمأ من جفّ حلقه من معاناة الغربة المقيته، وشعرت وأنا أودّعها أنّه ليس غير الإبداع من ينقذنا من عذاباتنا وأوجاعنا ويخفّف عن كاهلنا متاعب الحياة في الشتات والمنفى، غير أنّ ولادة المبدع نفسه، تسبقها وتصحبها عادةً آلام المخاض الشديدة.

في طريقنا إلى ترشيحا كان لا بدّ من القيام بزيارة هامّة أخرى إلى بيت الصديق حسين السويطي، الإعلامي والصحفي في جريدة الصنارة، حيث سألتقي بوالدته الحاجّة سعدى الكوري «أم خليل» في أبو سنان، وهي شقيقة من كان جارنا في بيروت «أبو خالد الكوري»، سيدة جاوزت التسعين من عمرها ولكنّها تتمتّع بقدرة جسديّة وذهنيّة مثيرة للإعجاب. كان لقاء على فنجان قهوة لها عبق التاريخ والذكريات الجميلة، ذكريات ما قبل النكبة، كانت قعدة قصيرة وكم وددت لو طالت لأغرف من المخزون التاريخيّ الذي تحتفظ به، كان كنزًا كبيرًا من المعلومات في ذاكرتها الحيّة بما تحمله من تفاصيل مدهشة حول أحداث جرت قبل النكبة تحمل الطابع الشخصيّ لمعرفتها بعائلتي، حيث كانت جارةً لهم. لقد أثار إعجابي عقلها المتوقّد وقلبها الذي ما زال فيه حرارة الشباب بالرغم من تقدّمها بالسن، ودّعتها على أمل اللقاء مرةً اخرى، وددت لو طال حديثنا ولكن دكتاتوريّة الوقت فرضت شروطها وترشيحا بانتظارنا وعلينا متابعة طريقنا. للصديق عادل خبرة طويلة في جغرافيا المنطقة هناك في الجليل الغربيّ. قاد السيارة بنا صعودًا مع بداية الغروب بألوانه الرائعة والنسمات الباردة تلاحق ما تبقّى من حرارة ذلك النهار، وطوال الطريق، وعلى وقع ما سمعت تعود بي الذاكرة إلى مدرستي الأولى. إسم ترشيحا له وقع خاصّ في ذاكرتي، تذكّرت الاستاذ أحمد عكاشة الذي كان مفعمًا بالوطنيّة والذي رسم لنا حينها خارطة الطريق إلى الوطن، ألا وهو العلم والمعرفة والوعي الوطنيّ، لأنّ أحد أسباب النكبة كان الجهل في كل ذلك. تذكّرت من درّسنا اللغة العربيّة الاستاذ عصام

شريح، الذي كان مغرمًا بالزجل وكثيرًا ما كان يتحوّل درس اللغة العربيّة إلى مباراة في الزجل بين تلميذين يتميّزان بموهبة الشعر والزجل. أتذكّر تلك الفتاة الفائقة الجمال، سميرة شريح التي بجمالها وطريقة لباسها تشبه أميرة قادمة من إحدى الأساطير وكانت محط أنظار معظم الشباب.

مرةً أخرى وفي النرويج تعود ترشيحا لمسرح الذاكرة عندما قرأت كتابًا عنوانه «فلسطين الجديدة»، تعرّفت على مؤلّفه عندما أجرى معي مقابلة عن مخيّم تلّ الزعتر ضمّنها في الكتاب. بدأ كتابه في الحديث عن ترشيحا ووراء الدافع لتأليف الكتاب، هو إنحياز الغربيّ الإعلاميّ ضد الفلسطينيّن بعد «عملية معالوت» في سبعينيّات القرن الماضي. بدء بحثه في مخيم برج البراجنة في بيروت حيث يقطن معظم أهالي ترشيحا، حدّثوه عن ترشيحا، عاد بعدها إلى الوطن وقابل الدكتور أسعد بشارة، أحد أبناء ترشيحا، وهو من أوائل الأطباء في فلسطين في بداية القرن الماضي، الذي حدّثه عن ترشيحا منذ بداية الحكم العثمانيّ وعن الانتداب البريطانيّ حتى النكبة. كيف أنّها كانت منعزلة عن العالم الخارجيّ حتى بداية الانتداب البريطانيّ. وكيف أنّ عائلة سرسق اللبنانيّة حاولت بيع أرض بجوار ترشيحا لليهود، قام وفد من أهالي ترشيحا وسافروا إلى لبنان لإقناعه بوقف عمليّة البيع وعرضوا عليه بأن يشتروا الأرض وكانوا بحدود 25–30 عائلة، وكان لهم ما أرادوا.

فشلت جميع المحاولات لشراء الأراضي من صغار الفلّاحين وأنّه على مستوى كل فلسطين كان من باعوا الأراضي من صغار الفلّاحين لا تزيد عن 10% بينما كان 90% منها بيع بواسطة كبار الملّاكين وجلّهم من غير الفلسطينيّين (لبنانيّين وسوريّين). حدّثه كيف أنّ الانتداب البريطاني أقام مجلس محليّ من أهالي، شقّت الطرقات وأصبح التواصل بين عكا وترشيحا بواسطة السيارات ممّا سهّل تبادل البضائع، بينما كان قبل ذلك يتمّ على البغال، وفتحت مدرستين وعيادة، وازدهرت زراعة التبغ كمصدر إقتصاديّ مهمّ للفلّاحين. بينما تواجُد الحكم العثمانيّ اقتصر على مخفر وشرطة وجابي الضرائب. كتاب شيّق يتحدّث عن العلاقات الاجتماعيّة والأعراس «والسحجة» «والحدّى» ولم يغادر أهالي ترشيحا قريتهم، أوّلهم كان «داوود حداد» وذلك لوجود حدّادين اثنين في القرية

فانتقل إلى الرامة وهناك تزوّج من ابنة المطران جميل نخلة؛ بينما الزواج كان يتم من داخل القرية للحفاظ على الأرض.

عام 1948 نزح معظم المجاهدين التي أُحتلّت قراهم ومدنهم إلى ترشيحا وهناك شكّلوا قيادة موحّدة بقيادة أحد القادة المحليّين، حسني صالح، الذي قابله صديقي النرويجيّ في بيته بالقرب من مخيّم برج البراجنة. قاوم أَهْل ترشيحا العصابات الصهيونيّة ببسالة وقُصفت البلدة بالطائرات وسقطت قنابل كبيرة على البلدة مما اضطّر الأهالي الخروج إلى القرى المجاورة والأكثرية منهم اتّجهت شمالاً إلى الحدود اللبنانيّة ولم يبق من أهلها الـ 3500 إلّا 600.

ولهذا جئنا هذا اليوم الـ 28 من أوكتوبر للمشاركة بذكرى مَن سقطوا مِن الأهالي في تلك المجزرة. كنّا قد وصلنا إلى ساحة البلدة وكان هناك العديد من أهاليها من كل الأجيال، كبار السنّ والشباب والشابات يعدّون لبدء مسيرة المشاعل السنويّة. كانت إلهام دَكوَر تتحرك بحيويّة في كلّ الاتّجاهات وتحمل علمًا فلسطينيًّا له قصّه كما رواها لي زوجها باسل، حيّكَ العلم في رام اللّه وأحضرته ابنته خلود من هناك، وابنته الصغرى سمانا تحمله في كل مسيرة، ودائمًا يتقدّم المسيرة السنويّة هنا في ترشيحا. كانت مسيرة صامته ومهيبة تقدّمها الرعيل الأوّل من أهل البلدة وهم يحملون المشاعل. مروحة واسعة من عدّة أجيال رسموا لوحةً جميلةً لهذه البلدة الرائعة كان لي الشرف أن أكون بينهم ومعهم، طافت المسيرة شوارع البلدة الضّيقة بين البيوت الحجريّة العتيقة، ولفت نظري على أحد الجدران كانت جداريّة كبيرة؛ صورة لشجرة باسقة متشعّبة الأغصان تمثّل عائلات ترشيحا وفروعها. بعد المسيرة توجّهنا إلى ساحة كبيرة في طرف البلدة حيث أقيم المهرجان، الذي بدأ بنشيد «موطني» – الذي حرّك المواجع – بأصوات أولئك الشباب والشابّات ومرافقة الفرقة الموسيقيّة التي عزفت أنغامًا عذبة، مشهدًا أعاد إلى الأذهان كّل لقاءاتي مع هذا الجيل الشاب مرّةً تلو المرّة يثبت الجيل الشاب أنّه يقود المسيرة نحو المستقبل الذي نرجوه، من طالبة الطبّ، عريفة الاحتفال التي أجادت دورها، إلى كلّ أولئك الذين ملؤا المهرجان بحيويّتهم من فرقة الإنشاد إلى من غرّدوا بأغانيهم الوطنيّة والذي أعطى للمناسبة معناها وقيمتها التي تستحق. في نهاية الاحتفال

شرّفني أهالي ترشيحا بالتكريم والذي اعتبرته ليس تكريمًا شخصيًّا لي بقدر ما هو تكريم لشهداء مخيّم تلّ الزعتر وما بقي من أبنائه.

كانت الاجواء وطنيّة بامتياز، رائعة بإيقاعها ممّا يدلّ على مدى تمسّك أهل ترشيحا ببلدهم وكيف حاول الكثيرون منهم التسلّل والعودة إليها من لبنان بعد النكبة، ومنهم صادق عمر الذي قابله الصحفي النرويجيّ، كان صادق مدرّسًا للكيمياء في الجامعة الأمريكيّة في بيروت، حاول ثلاث مرّات العودة إلى ترشيحا ولكنّه أُبعد عنها قسرًا من جديد، وأخيرًا إستقرّ في بيروت على أمل العودة، هو وزوجته يؤكدون أنّه لم تمرّ عليهم لحظه واحدة دون أن يتذكّروا ترشيحا ويحلمون بالعودة إليها يومًا ما وكان جاوز التسعين من عمره في ذلك الحين.

أمّا الاستاذ أحمد عكاشة، الذي درّسَني فيقول كيف أنّ السلطات اللبنانيّة منعت الكثير من اللاجئين الفلسطينيّين النزول من القطار في لبنان حتى لا يزداد عدد اللاجئين وأجبرت القطارعلى الاستمرار في طريقه إلى حلب، وكيف أنّه قفز من القطار بعدها وأستقر في برج البراجنة في لبنان. باقي من كانوا في القطار من أهالي ترشيحا فقد إستقرّوا في «مخيم النيرب» قرب مدينة حلب.

بعد الأمسية، المليئة بالملاحظات التي لا تُنسى لما تحمله من معاني، إنتقلنا إلى منزل الصديق باسل وزوجته العزيزة إلهام في اُمسية تبادلنا فيها حكايا لا تنتهي. وقفت على شرفة منزله المشرفة على معظم البلدة في تلك الليلة الصافية الأديم، أنقّل النظر وأحّدق في بيوتها التي نام بعض أهلها وبعضهم مازال ساهرًا، بعضهم يحلمون بعودة باقي الأهل والبعض الآخر يتذكّرون ماذا حلّ بأهلهم؛ تأمّلت بتلك النسمات الباردة القادمة من الشمال لعلّها تحمل أنفاس أهاليهم في مخيم برج البراجنة، بل ربّما تحمل أنفاسًا أبعد، من مخيّم النيرب، معاناتهم من فظائع الحرب في سوريا.

وتعيدني الفنّانة سامية إلى زاروبها الذي يوزّع الأوجاع علينا جميعًا في تلك الفقرة التي تنزف ألمًا من مسرحيّتها «المونودراميّة» على لسان الترشحانيّة «أم سليم البيك»:

– أنا أم سليم البيك من ترشيحا... إلي إبن بكامب النيرب بحلب... يا مين بيعرف

عنه شي... والمحرمة من عبي طُلتها وأنا أشوح فيها وأنادي... وإلّا بهُوض عَلَيّ مِن ورَاي.. أنا سليم يَمّا... وأنا يا بنيتي ما عدت وعيت على حالي غُوطَنِت... يعني غبت عن الوعي... كان معه مدري جريدة مدري دفتر صحيت لقيتو بهوّيلي على وجهي ويقوللي سليمة يَمّا... قُلتِلّه ما بِدِّي أموت هون... بدّي أموت بتَرشيحا....

سلام لك وعليك أيّتها الفنّانة المبدعة سامية قزموز بكري وأنت التي بحسِّك الفنيّ المرهف قَلَّبتي مواجع النكبة من جديد. سمعت صوتًا من داخلي عند لقاءنا الأول يصرخ: أنا من هنا!!.. سلام لسعدى الكوري «أم خليل» هذه السيدة الرائعة التي تحفظ في عقلها ووجدانها ذاكرة حيّة... وسلام لأهالي ترشيحا أينما وجدوا... فترشيحا تفخر بأبنائها أينما وجدوا. فهي تنثر بذورها عبر أَهلها حيثما إستقروا لتفتح زهورًا أكاديميّة توزّع أريجها إلى كلّ من حولها.

الحلقة الخامسة عشرة

بين مرسم فنّان، لجنة المهجّرين ولقاء عائلة مخول

بين مرسم فنّان، لجنة المهجّرين ولقاء عائلة مخول

أفقت هذا الصباح باكرًا على صياح ديك في الجوار، هذا الديك لم يلتزم يومًا بقوانين الطبيعة المألوفة، تارة أسمع صياحه في ساعات الليل وأحيانًا في عزّ الظهيرة. هذا الصباح لم يخطأ الهدف كثيرًا، دفعني فضولي لرؤيته، خرجت إلى الشرفة واذا به يمشي متبخترًا بين بضع دجاجات بألوانه الزاهية، شعر بوجودي، نظر إليّ بإستعلاء كأنّما يقول لي أنّه وحده الذي يقرّر انبلاج الصباح. حسناً.... كان لا بد أن أستيقظ باكرًا هذا الصباح، البرنامج مزدحم بمواعيد كثيرة. حضر عادل باكرًا هذا الصباح ويدعونا إلى فطور إستثنائيّ اليوم في مطعم «كنّاوي» يقدّم وجبات فول شهيّة في ساحة الحناطير. من هذه الساحة كانت تنطلق الحناطير إلى عكا والناصرة. وأحيانًا إلى بيروت. لم أستطع مقاومة العرض. كان إقتراح عادل بتقدير عزيز وتقديري في مكانه. كان فطورًا شهيًّا، توجّهنا بعدها صعودًا على ذلك الدرج الحجريّ باتّجاه «مَسرح الخشبة»، مسرح افتُتح حديثًا بواسطة مجموعة من الشباب المسرحيّين، يهدفون من خلاله إلى تحويله لبيت للفنّانين الفلسطينيّين، وساحة للتجريب المسرحيّ، في محاولة منهم لمزج كلّ ما هو عالميّ مع ما هو محلّي، كان ملفتًا إختيار المكان ورمزيّته في حيّ وادي الصليب، هذا الحيّ العربيّ الذي يتعرض لعمليّة تهويد شرسة، كأنّما هدفهم هو الحفاظ على هويّته العربيّة، كان حوارًا دافئًا مع شابّين كانا هناك حول دور المسرح المهم. لفت نظري الملصقات في داخله تشير إلى عالميّة التوجّه... جاكسون والتمييز العنصريّ في أمريكا، ولو أنّ الأقرب للمقارنة في حالتنا الفلسطينيّة هي النموذج الجنوب أفريقيّ، إستوقفني شعار المسرح «شجرة في إطار»، لعلّها شجرة زيتون، الرمز الفلسطينيّ السرمديّ، ولكن فروع هذه الشجرة تنمو وتتجاوز الإطار حولها، أحسستها تمثّل صرخة تمرّد للخروج عن الإطار المحليّ الى آفاق عالميّة. زيارة قصيرة ولكنها غنيَة ومكثّفة.

تابعنا طريقنا حسب اتفاق مسبق على طريق الجبل، وهناك خلف الكنيسة الأرثوذكسية مرسم الفنّان الحيفاويّ عبد عابدي، ذلك الفنّان المبدع الذي بعكس ما جرى مع الكثيرين ممّن هاجروا إلى لبنان مع والدته وإخوته، عاد بعد 3 سنوات إلى الوطن بفضل والده الذي بقي صامدًا في حيفا وحمل عذابات النكبة والشتات في ذاكرته التي ترجمها، بعد أن صقل موهبته الفنيّة في أكاديميّة الفنون في مدينة دريزن الألمانيّة وغمس ريشته بكلّ المعاناة لتخرج فيما بعد أعمالاً ولوحات فنيّة ونصب تذكاريّة على مدى الوطن لعلّ أهمّها النصب التذكاريّ في سخنين لشهداء يوم الأرض بالاشتراك مع الفنّان اليهوديّ «غرشون كنيسبل» في لفتة رمزيّة إلى إمكانيّة التعايش بين الشعوب وهو الفنّان الملتزم بإنسانّيته، لقد أثار إعجابي تواضع هذا الفنّان الكبير وقمنا بجولة على لوحاته المعبّرة ولعلّ من أكثر اللوحات التي أثارت إنتباهي لوحة لوالده الذي بقي في حيفا على خلفيّة التهجير والتي تعكس تلك اللحظة الحزينة والمؤلمة على الصعيد الشخصيّ والعامّ. عند وداعي همس في أذني وصيّة لا زلت أحفظها عن «إهداء لوحاتي!!» وقام بإهدائي «كاتالوجًا» يحتوي بين دفّتيه على السيره الذاتيّة وعن الخمسين عامًا من الإبداع الفنّي.

قبل أيام إتصلت بي الناشطة رنا عوايسة من جمعية الدفاع عن حقوق المهجّرين، طالبة ماجستير في جامعة تل أبيب، تقوم بعمل تطوعي في الجمعيّة وهي المهجّرة من قريتها صفورية، وذلك للقاء مع أعضاء الجمعيّة في مقرّها في شفاعمرو، واتفقنا على الموعد. توجهت برفقة عادل وعزيز إلى هناك. كان لقاءاً مليئًا بالمشاعر المشتركة. شعرت بداخلي كم أشبههم ويشبهونني وأنا بينهم. يعملون في قضية من أنبل القضايا وأكثرها إيلاماً من أجل أولئك الذين شُردوا من قراهم ومدنهم ويعيشون على مرمى حجر ولا يستطيعون العودة إليها، لعلّ ذلك من أصعب ما يمكن تحمّله، أن يعيش على الذكريات ويتخيّل ويحلم بالعودة إلى وطنه. بيته وقريته أمامه ولا يستطيع إلي ذلك سبيلا. كان من بين الحاضرين 3 أجيال واثنين من الأسرى المحرّرين: الأخ محمد مطري، الذي شاهدته بالامس في ترشيحا وهو يحمل العلم الفلسطينيّ ويتقدّم مسيرة المشاعل، والموجود في كل ساحات النضال يحمل لواء الحركة الأسيرة، والأسير المحرّر كمال قبطي وزوجته سلوى، ذلك المناضل الشجاع من بيت وطنيّ كريم، صاحب التاريخ

الناصع، بالإضافة إلى جمع من الناشطين في هذه الجمعيّة. تكلّمت الناشطة رنا عن المناسبة وقدّمتني للحضور بمهنيّة العارف. تحدّث رئيس الجمعيّة، نايف حجو، عن الجمعيّة وما تقوم به، تحدّثتُ بعدها عمّا جرى في مخيّم «تلّ الزعتر»، افتقدت صورة المخيّم بين صور المخيّمات الفلسطينيّة في الشتات التي تزيّن القاعة ووعدت رنا بأنّهم سيضيفون صورة للمخيم. بعد أن قلت لها: «بعد ما يتوفّى الانسان يبقى حاضرًا من خلال صورة على جدار».

ودّعناهم واعتذرنا عن قبول دعوة للغداء لضيق الوقت وما كان إلّا أن قدّمت لنا رنا هديّة جميلة عبارة عن بعض الرمّان من نوع «المليسي» الصفّوري حسب ما ذكرت. مثيرًا للإعجاب نشاط هؤلاء المتطوّعين الشباب: رولا مزاوي، أماني ابراهيم، حنان حبيب الله وجمال أبو شعبان الذين يتمتّعون بثقافة وروح وطنيّة عالية تدعو للاحترام والافتخار. قبل مغادرتنا شفاعمرو اصَر عادل على أن نتذوّق بوظة شفاعمرو المشهورة. كانت مناسبة غنيّة للتعرّف على نشاط هذه الجمعيّة التي تحمل لواء العودة وتبقي جذوة الذاكرة الفلسطينيّة حيّة في جيل الشباب.

عدنا إلى حيفا وفي المساء كانت هناك دعوة من الأصدقاء سعاد وعصام مخول في بيتهم العامر في الكرمل. ضمّت الأمسية كل من المحامي رضا عزام وزوجته المهندسة والفنانة تيريزا عزام، المربّي الاستاذ جريس خوري والدكتور سمير خطيب وزوجته الدكتورة نوخا بالاضافة للأخ عزيز. شعرت وأنا أعبر عتبة الدار بأنّني أدخل في صرح ثقافيّ وفنيّ مميّز، حيث أضفت لوحات الصديقة سعاد، متخصّصة في هندسة وتخطيط المدن، جوًّا غنيًّا بألوان لوحاتها الفنيّة الدافئة والتي تتوزّع بين أعمال حيث المرأة هي الموضوع الأساس، بما يحمل ذلك من رمزيّة لدور المرأة المحوريّ في المجتمع، أمّا الموضوع الآخر فهو توثيق فنيّ لمدينة حيفا وخاصّة لوحاتها عن وادي الصليب، كما استطاعت من خلال معرض المدن «حيفا من هنا انطلقت» وبأسلوب فنيّ راق أن توثّق التطوّر التاريخيّ لمدينة حيفا عبر العصور بشعورها المميّز وحبّها لحيفا، الذي اكتسبته من كونها ابنة حيفا حيث ولدت وعاشت طفولتها وما زالت. أثار إعجابي تلك المقتنيات القديمة عن حيفا وتلك الخارطة القديمة لفلسطين التاريخيّة. سألتني ممازحةً وهي

تحمل أحد المقتنيات، هل تعرف ما هذا؟ فأجبتها بعد تمعّن وتفحّص أنّه قنديل قطار وسبب معرفتي بذلك أنّني كنت قد انجزت آخر لوحة وهي عبارة عن قطار وناظر المحطّة حاملًا القنديل قبل فترة وجيزة. أمّا الصديق عصام فهو قامة فكريّة ونضاليّة، منذ سنوات يدير معهد إميل توما للدراسات الفلسطينيّة – الإسرائيليّة، يشكّل عمل هذا المعهد الرواية البديلة للرواية الصهيونيّة عن القضيّة الفلسطينيّة. هذا ما وجدته في مقدّمته لكتاب المؤرّخ الدكتور إميل توما «جذور القضيّة الفلسطينيّة» معتبرًا الكتاب بأنّه التاريخ الحقيقي، ومفندًا كلّ ما جاء من تزوير في رواية بن غوريون عن ثورة 1936 والتي امتدت لسنوات حيث يدّعي بن غوريون: «إنّه لم تكن هناك إنتفاضة قوميّة، ولم يشارك الشعب العربي أو جلّه في الحوادث، فهو يفتقد إلى الإرادة. والطاقة والقوّة لأن يثور». مجسّدًا بذلك موقف الحركة الصهيونيّة من حركة التحرّر القومي العربيّة ونضالها من أجل الاستقلال.

كانت أُمسية غنيّة وثمينة وأحاديث فكريّة وسياسيّة اتسمت بحرارة اللقاء، كانت فيها أذناي متعطّشة لسماع كلّ ما يدور من حوار، كان كلامهم يلامس المواجع، عن معاناتهم التي تذكّرني بمعاناتنا في الشتات، فقد ساقني حظّي للقاء بهم لأُشاركهم ويشاركوني معاناتهم وأحلامهم. تأكّد لي أنّ ما قاله بن غوريون عن الإرادة والطاقة لا يستقيم مع ما شاهدته حيثما حللت. شعرت هنا أنّ الإرادة القويّة وحدها تحرّر الانسان وإذا اقترنت بالإبداع والثقافة فإنّها تختصر الطريق إلى تحقيق الأماني وبأقلّ الخسائر. أيقنت أنّ الأفكار لها أجنحة كما قال الفيلسوف ابن رشد ولا يمكن سجنها في قفص وخاصة عند أولائك الذين يملكون المعرفة وحقيقة الأشياء ولا يبقونها في داخلهم ولا يتكلّمون بها وعنها، بل بالعكس من ذلك ينشرونها بكلّ قيمها الاخلاقيّة والاجتماعيّة ليضيئوا بها كهوف الجهل المظلمة. كانت أُمسية تميّزت بعبق التاريخ والفنّ، تحدثنا عن كلّ ما هو جميل في حيفا وما تبقّى من عروبتها ومن يحافظ على ما تبقّى من عروبة المدينة. لقد أعطتني هذه الزيارة زوّادة حقيقيّة من الأمل أحملها معي إلى المنفى وربما تكون سببًا في عودة كبرى. لفتةٌ مفعمة بالانسانية جادت بها العزيزة سعاد في نهاية هذه الأمسية الرائعة حين قدّمت لي لوحة من أعمالها الفنيّة عن حيّ وادي الصليب.

عدت ليلًا بعد يوم طويل، شعرت وكأنّني قد قمت بجولة في حديقة مزدحمة بالاشجار المثمرة، أقطف من دوحاتها المختلفة أجمل الثمار. لم أشعر بعظمة الغابة بقدر ما شعرت بقوة وصلابة الأشجار فيها. من مطعم كفر كنا وشبابه الذين أتقنوا صحن الفول مرورًا بمسرح الخشبة والمسرحيّين الشباب الذين يتمرّدون على واقع يريد أن يفرض نفسه عليهم، إلى مرسم الفنّان عبد عابدي الذي تمرّد على النكبة وعاد إلى حيفا ليصقل من عذاباته وعذابات شعبه فنًّا كبيرًا بكلّ أبعاده الانسانيّة، إلى الناشطات والناشطين الرائعين الذين يمدّوننا بالأمل من الشباب والأسرى والمسنّين في جمعيّة الدفاع عن حقوق المهجّرين وهم يحرسون ذاكرتنا الجماعيّة ويمسحون عن قرانا المدمّرة غبار النسيان.

وختامًا بدار عائلة مخول الذين أيقنوا أنّ أدوات الصراع تتطلب فهم أسبابه وأنّ الفنّ والثقافة من أهمّ أدوات الصراع. كان هناك شيءٌ واحد مشترك عند كلّ من قابلتهم، إنّه قوّة الإرادة على الاستمرار لنيل الحقوق كاملة وهذا ما يدحض مقولة الصهيونيّ بن غوريون، وإنّ الخطر الحقيقيّ الذي يتهدّد هويّتنا كشعب يكمن بما هو من حولنا والذي يتمثل بإرادة القوة التي تطغى على قوّة الإرادة. وفاقد الإرادة هو أشقى البشر كما قال أرسطو.

رحم اللّه الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي وأبياته الشعريّة:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة

فلا بدّ أن يستجيب القدر

الحلقة السادسة عشرة

مارالياس «الخضر» مرّةً اخرى – عرابة البطوف

مارالياس «الخضر» مرّةً اخرى – عرابة البطوف 30/10

في صبيحة هذا اليوم سأزور ما تبقّى من سلسلة الكرمل، لقد غاب روتين الصباح الخاص بي هنا على أرض الوطن، كلّ صباح هنا جديد، له لونه ونكهته الخاصة وهذا صباحٌ كرمليّ بإمتياز. إنطلقنا من حيفا جنوبًا وانعطف بنا عادل يسارًا وصعودًا إلى طيرة الكرمل، في طرق ملتوية، وطبيعة غنّاءة، تتخلّلها مساحات لأشجار السنديان والصنوبر. عرفت من عزيز وعادل أنهّ مكان مفضّل لأهالي حيفا لقضاء نهاية الأسبوع هنا بين أحضان الطبيعة. تابعنا طريقنا ووجهتنا المحرقة مرورًا ببلدة عسفيا بإتّجاه دالية الكرمل، وفي نهاية الطريق التي تحفّ به أشجار السنديان والصنوبر الباسقة وصلنا إلى دير مار الياس المعروف «بالمحرقة» في منطقة تعتبر أعلى قمم الكرمل والتي ترتفع حوالي 500 مترًا عن سطح البحر، والتي تُشرف على مرج بني عامر و«وادي الملح».

راقني هذا الجو الرائع، لفحات صافية، ونفحات طيّبة، شعرت أنّني أتنشق هواءً مشبعًا برائحة الوطن ملأت صدري بنسمات عليلة وأغصان الأشجار الباسقة تتراقص من حولي وحفيف أوراق الشجر كسحر موسيقى ناعمة، نظرت إلى زرقة السماء، واستحضرت سماء النرويج في هذا اليوم التشرينيّ حيث يكدّر وجهها الغيوم ويرهقها اللون الرماديّ. ما أروع الهدوء والسكينة في هذا المكان. سِرنا باتجاه الدير، عبرنا البوابّة الحديديّة التي تفضي إلى باحة واسعة يتوسّطها تمثال كبير للنبي إلياس شاهرًا سيفه، واضعًا قدمه على رأس أحد أنبياء بعل، تمثالٌ فيه الكثير من رمزيّة ما حدث هنا حسب رواية «الكتاب المقدّس» في «سفر الملوك»، وما قام عزيز بشرحه حول إبنة ملك صور التي تزوّجت أحد ملوك إسرائيل وأدخلت عبادة الإله بعل، وعن مبارزة وتحدّي بين النبي إلياس وأنبياء الإله بعل، وذلك بأن وضعت كومة من الحطب عند المذبح وفشلت دعوات أنبياء بعل بإنزال النار من السماء، وضع النبي إلياس ماءً على

الذبيحة ودعا فنزلت النار من السماء، عندها قام النبي مع الشعب بأخذ الأنبياء الكَذَبة وذبحهم عند نهر المقطع.

تابعنا سيرنا إلى الدير الذي يشبه القلعة ويعود تاريخ بنائه إلى العصر البيزنطيّ ويتبع الآباء الكرمليّين .

ونظرًا لأنّ النبي إلياس، وهو" الخضر" عند المسلمين، وله مقامة خاصة عند "الموحّدين الدروز" فقد أقيمت في بداية القرن السابع عشر بعض القرى الدرزيّة مثل عسفيا ودالية الكرمل في عهد الأمير فخر الدين المعني الكبير. أصبح الدير معلمًا سياحيًّا يستقطب الكثير من السيّاح من كلّ أنحاء العالم.

دخلنا الدير واتّجهنا إلى الجهة الشرقيّة حيث الشرفة الواسعة التي تُشرف على مرج بني عامر ووادي الملح، الممرّ التاريخيّ الذي شهد معظم الغزوات والفتوحات عبر التاريخ.

هذه المنطقة هي جزء من بلاد الروحة، من أكثر المناطق خصوبة في فلسطين، يقع وادي الملح في الحدّ الشماليّ للروحة. كان وادي الملح الطريق التجاريّ القديم، الذي يربط مصر بالإمبراطوريّات الشماليّة في سوريا وبلاد ما بين النهرين وبلاد الأناضول. شهد هذا الوادي أشهر المعارك عبر التاريخ. حسب روايات الأصوليّين الإنجيليّين أو «الصهيونيّة المسيحيّة» فإنّ معركة «أرمجيدون» ستنشب في هذا الوادي. تقول الكاتبة الأمريكيّة جريس هالسل في كتابها » النبوءة والسياسة» : «إنّ لأتباع هذه الفئة حضور قويّ في الولايات المتّحدة يصل إلى 40 مليون شخص ولهم نفوذ وتأثير قويّ داخل المجتمع الامريكيّ، وكان الرئيس ريغان أحدهم. يتحدّثون عن محرقة نوويّة حيث سيحرق كلّ الناس (المسلمين والمسيحيّين العلمانيّين واليهود) ما عدا المسيحيّين الإنجيلّيين تحضيرًا لعودة المسيح «المخلِّص» الذي سيحكم ألف عام وعودته مشروطة بقيام «دولة صهيون».

من هنا ،من على هذه الشرفة تبدو أمامنا «بانوراما» رائعة مرج بني عامر وفي المقابل تبدو العفولة والناصرة و باقي الجليل.

كيف يخطر ببال هؤلاء المتعصّبون، الذين لا يعرفون التساهل، بقلوبهم المثقلة بالحقد أن يتخيّلوا بأنّه بهذا المكان الرائع بطبيعته الخلّابة، بهذا الهدوء وهذه

السكينة، إنّها ستكون مسرحًا لحروب ومحرقة لمئات الملايين من البشر؟ (ما يثير القلق هو ما يحدث الآن في المنطقة العربيّة من نواة «لصهيونيّة مشابهة تتستّر وراء الاسلام!!» بدت ملامحها تظهر مع بداية ما يُسمّى بالربيع العربيّ!!). كانت جولة غنيّة بجمال الطبيعة والتاريخ في أعالي الكرمل تعرّفت من خلالها على وادي الملح، الذي قرأت عنه كثيرًا، ومع هذا اللفحات الصافية شعرت بغبطة وحبور، كأنّني أسمع صوتًا من داخلي يقول لي: إبق هنا بيننا... حيث تنتمي..

لكن عليّ أن أغادر لأنّ هناك من ينتظرني في عرابّة البطّوف هذا المساء.

توجّهنا مساءً إلى عرابّة البطّوف قاصدين «مركز محمود درويش الثقافيّ» حيث ستقام الأمسية. في الطريق إستعدت ذاكرتي مع عرابّة البطوف، تحملني أفكاري مسافات زمانيّة طويلة تبدأ بالشيخ ظاهر العمر قبل أكثر من 300 عام إلى يوم الارض الخالد قبل 40 عامًا وصولاً إلى هبّة أوكتوبر عام 2000. الشيخ ظاهر العمر أحد أهمّ الحكّام العرب في العصر العثمانيّ والذي حاول أن يحارب الإضطّهاد والقهر ويساعد صغار الفلّاحين ضد سطوة الولاة والمحاسيب. حاول بناء حكم مستقّل في فلسطين آنذاك. إختلف المؤرّخون حول مكان ولادته ولكنّ الأرجح هو عرابّة البطوف من أم بدويّة من عرب السرديّة، وله أخت إسمها شما (من كتاب ظاهر العمر للمحامي توفيق معمّر ابن الناصرة).

وصلنا الى سخنين وكان الليل قد أرخى سدوله، إستطعنا بعد جهد الوصول إلى المركز الثقافيّ الذي يقع في أطراف البلدة والذي يحمل إسم أيقونة الشعر العربيّ والفلسطينيّ محمود درويش. إسقبلنا رئيس بلديّة عرابّة المربّي علي عاصلة والأستاذ محمود ابو حجازي، مدير مركز محمود درويش الثقافيّ، وحضور كبير من المدينة والبلدات المجاورة.

كانت المفاجئة السارّة - والتي ساهم في ترتيبها الأخ جمال أبو شعبان، الناشط في لجنة الدفاع عن حقوق المهجّرين - لقاء حارّ ذو شجون مع عائلة من أهالي مخيم تلّ الزعتر كانت بين الحضور، كان لقاءً مؤثّرًا بإبنة تلّ الزعتر جمانة كيال ووالدتها أم رشيد، كانت جمانة طفلة أيام الحصار، عبّرت بكلماتٍ مؤثّرة عن المجزرة والحصار وهي التي فقدت والدها شهيدًا في المخيّم، إبنةً قرية شعب التي عادت إلى الوطن. تحدّثت بحرقة ومرارة قائلةً: «ما تركناه هناك

يبقى محفورًا إلى الأبد وحيث يكون ماضيك يكون قلبك»، وتردّد قائلة: «عيوننا شهدت وشاهدت من الأحداث أكثر بكثير مما سمعت آذان الآخرين. كان لقاءً حرّك المواجع، فتلّ الزعتر جرحٌ نازف لم يندمل.

تميزت عريفة الأمسية الطالبة ربى رباح بحيويّتها التي تعكس دور جيلها الناشط في كل المجالات. قدّمت عرضًا موجزًا لما حدث في المخيّم وتوالت الكلمات من رئيس البلديّة، تبعها كلمة مؤثّرة من الدكتور علي بدارنة، حيث قام بمهنيّة عالية مستندًا إلى أدوات إختصاصه في مجال علم النفس السريريّ بتقديم قراءة تحليليّة معمّقة ذات أبعاد تاريخيّة، لامست الجانب النفسي والوجدانيّ لتجربة الأطباء في المخيّم أثناء الحصار، مقارنتها بتجارب أخرى مؤكّدًا على أهميّة التوثيق في تاريخ الشعوب. بعدها قمت بإلقاء محاضرتي شاكرًا كلّ القيّمين على هذه الأمسية الرائعة.

بعد الأمسية، دعانا الدكتور علي بدارنة إلى منزله لنستكمل الحديث هناك. مع دخولنا المنزل فضّلت الجلوس في الحديقة، لشعوري بالحرمان من نعمة الجلوس قي حديقة منزلي في هذا الوقت من العام بسبب برودة الطقس. كان الطقس جميلًا في تلك السهرة التي ضمّت مجموعة ممّن كانوا في الأمسية بينهم الدكتور سمير خطيب والمخرج باسل طنوس. تأمّلت مليًّا بالهندسة الجميلة لهذا المنزل بجدرانه الحجريّة العتيقة والتي بُنيت بطريقة غير تقليديّة. سألت مضيفي عن ذلك، فأخبرني قصّة هي مزيج من الغرابة وإرادة الصمود قائلًا: «بُني هذا البيت من حجارة البيوت الفلسطينيّة القديمة التي هُدمت بفعل الزمن ورغبة اصحابها بالتجديد وفكّرت بأنه يجب إعادة بناءها حتّى تبقى هذه الحجارة القديمة حيّة وشاهدة على التاريخ» حرّكت مواجعي آنذاك، وأردف قائلًا: «نعم، لقد قمت بالبحث عن هذه الحجارة، لإعادة إحياء التاريخ والحفاظ عليه، كانت هذه الحجارة شاهدة عليه». نعم هذه حجارة بيوت حفظت في ذاكرتها كل الحكايا التي كانت تدور داخلها من جلسات وأحاديث أَهلها وأسرار ساكنيها، ولم تنس كلّ ما كان يحدث خارجها، من ملاعب ذكرى لطفولةٍ أُقتُلعت من أرضها قبل أن يقوى عودها وكبرت وترعرعت في الشتات، لسهراتٍ جميلة في ساحة القرية تحفظ في ذاكرتها همسات صبايا القرية، أهازيج الاعراس، ما زالت تحمل في

ثناياها كلّ أوجاعها بفعل تلك اليد الشرّيرة التي قامت بهدمها وبعثرتها. هذه الحجارة هي الشهيد والشاهد على ما لحق بشعبنا من ظلم. ما قام به الدكتور علي هو لمّ شمل الذاكرة الجماعيّة، أبدع في جعل هذه الحجارة الصامتة – طوال كلّ هذه الفترة – تنطق من جديد وتصرخ بأعلى صوتها: «خذوني وابنوا بيوتكم من جديد»، إنّها قوّة الإرادة مقابل إرادة القوّة، لقد إحتوت هذه الهندسة الجماليّه والإبداعيّة للمنزل على مخزون كبير من ذاكرتنا الجماعيّة وفي كل مدماك قصص وحكايا. لعلّ الدكتور علي يسمع بعضها بين الفينة والفينة.

نعم... نحن كما طائر الفينيق الأسطوريّ الذي يموت و يُبعثُ حيًّا من رماده. نحن لا نحتاج إلى حفريّات في باطن الأرض ولا إلى علماء آثار لنثبّت هويّتنا. أحجار قرانا المتناثرة وأشجار الصبّار تعطي للأرض هويّتها. حسناً فعلت د. علي من خلال رمزيّة هذا المنزل، شيّدت صرحًا للذاكرة الجماعيّة.

من حيفا الواقفة على شاطئ بحرها تنظر إلى الأفق البعيد، تنتظر مراكب العودة، إلى الكرمل الذي يحمل بين ثناياه وعلى قممه روحيّة الوطن، ومار الياس الذي يرمز إلى انتصار الحق، إلى عرّابة التي احتضنت ظاهر العمر الذي ظُلِمَ من قبل المؤرّخين خوفًا من سطوة الولاة العثمانيّين لأنّه حاول أن ينشأ في فلسطين حكمًا مستقلًّاً عن الأتراك ودفاعًا عن فقراء الفّلاحين، إلى شهداء يوم الأرض في عرابة وسخنين ودير حنا والطيبة، إلى هبّة أكتوبر عام 2000 واستشهاد أسيل ورفاقه، إلى جمانة كيال الطفلة التي نجت من جحيم المجزرة في مخيم تلّ الزعتر وعادت إلى أرض الوطن، وأخيرا إلى الرمزيّة الساطعة في بيت الدكتور علي في عرابة، الذي حقّق بعمله هذا بعض أحلامه. هناك شيئ مشترك وسرٍّ وحيد يكمن في قوّة الإرادة لشعبنا عبر التاريخ. أمّا نحن التائهين في المنافي البعيدة ومخيّمات الشتات، فنحن نحمل الوطن في داخلنا، فإذا أنتم مازلتم ساكنين على أرض الوطن، فنحن يسكننا الوطن أينما كنّا، فهو الروح بالنسبة لنا، فإنسلاخ الروح عن الجسد هو الموت بعينه، ونحن شعبٌ يحبّ الحياة، لأنّه على أرض الوطن تستقيم الحياة.

حيفا... لا أقول وداعًا... بل إلى اللقاء

حيفا... لا أقول وداعًا.... بل إلى اللقاء

عدت ليلًا من عرّابة البطّوف إلى حيفا، تنازعتني في الطريق افكارٌ كثيرة مزدحمة في رأسي، كانت افكاري تحاور نفسها حول الغد، يوم الوداع، إنّها ليلتي الأخيرة في حيفا. مشاعر جامحة تطغى على المشهد، عجبت لذلك التداخل العجيب بين الحزن والفرح، وهذا ما يحدث معي في الكثير من الأحيان لأنّ الوطن يدقّ باب ذاكراتنا ويتداخل بقوّة في تفاصيل حياتنا اليوميّة. حزنٌ على فراق الوطن وعلى من التقيت بهم من أهله الطيّبين، يقابله فرح اللقاء بهم، وعناق حيفا ورؤيتها ببحرها وكرملها وأهلها الرائعين. وصلنا حيفا بُعيد منتصف الليل بقليل، حاولت أن أغفو في وقت لم يبق معي أحدٌ غير مشاعري وأحاسيسي هواء غرفة النوم كان عليلًا ومثقلًا بكلّ تلك اللحظات الجميلة التي قضيتها هنا، محاولًا سرقة وحدتي. كان لوقع الحياه هنا وطقوسها الجميلة، التي تقاسمت تفاصيلها مع أهلها طعمٌ آخر. كيف سأقضي غدي؟ اليوم الأخير، لا بُدّ من أن أودّع حيفا بما يليق بها، هناك متسعٌ من الوقت قبل اللقاء الوداعي مساء هذا اليوم مع الأصدقاء في مقهى «فتّوش»، أُغادر بعدها أرضً الوطن- إذًا ساكّرسُ نهاري متجوّلًا في شوارع ما تبقى من حيفا العربيّة.

نهارٌ تشرينيٌ أخر هاربٌ من بقايا صيف، تمنحني إيّاه هذه المدينة المعطاءة والرائعة بطيبتها تجوّلت برفقة عزيز في حيّ وادي الصليب ببيوته وشوارعه الحزينة، مودّعًا تلك البيوت الحجريّة الباكية بلا دموع، طُمس على نوافذها وأبوابها بإسمنت كالح اللون، شوّه روحها وشكلها الهندسيّ العربيّ الجميل، في محاولة لمحو هويّتها وأصالتها بمحاولة لمنع عودة أهلها الأصليّين إليها، أوجعتني عبارة «بيوت آيلة للسقوط» والتي يتردّد صداها عبر تلك اليافطات الخبيثة أينما ذهبنا في شوارع الحيّ الكئيبة. تابعنا طريقنا بعدها إلى حيّ وادي النسناس، تجوّلنا بسوقه الشعبيّة، على جانبيّ الشارع الضّيق صفوف طويلة ومتراصّة من

محلّات الخضار والدكاكين والمطاعم وجلبة كبيرة في سوق الخضار، يرفع عزيز يده محيّيًا معظم من يُصادفهم من المارّة، يتوقّف معهم قليلاً ويدخل في حوار مفاجئ سرعان ما ينتهي بالمصافحة، منهم اليهوديّ اليمنيّ والعراقيّ والروسيّ ومنهم الأثيوبيّ؛ لم يكن غريبًا على عزيز كلّ هذا وهو الذي ترعرع وعاش معظم شبابه في حي الألمانيّة، العارف بتفاصيل هذا الحيّ العربيّ، بعض ما تبقّى من عروبة حيفا. وادي النسناس الذي شهد اللحظات المريرة والمؤلمة في يوم النكبة حيث حُشِر فيه ما تبقّى من أهالي حيفا، بينما أُجبِر الكثيرين من الأهالي على الصعود إلى المراكب، حيث تمّ إرسالهم إلى المجهول. أوصلنا تجوالنا إلى مطعم فلافل ميشيل الشهير، قِبلةَ محبّي أكلة الفلافل، هذا المطعم البسيط الذي تعاقب على إدارته عدّة اجيال من عائلة حيفاويّه كما أخبرني عادل – هو مقصد الكثيرون من العرب واليهود، لجودته العالية في تحضير وجبات الفلافل الشهيّة وهو مَعْلَم من معالِم وادي النسناس. إنتهى بنا المطاف في متجر عثمان الزعبي وحوار شيّق مع عزيز في التاريخ لا ينتهي.

في المساء، بناءً لدعوة مُسبقة من الصديق عادل ملشي، إلتقينا في مقهى فتّوش، في أمسية وداعيّة مع مجموعة من الأصدقاء: د. جوني منصور والمحامي فيكتور مطر مع زوجاتهم، بالاضافة إلى د. سمير وزوجته د. نوخة والأعزّاء باسل طنوس وعزيز خضر. نحن الآن في حيّ الألمانيّة، الحيّ المتميّز ببيوته الحجريّة والسطوح القرميديّة الهجينة، حيث يمتزج الفنّ المعماريّ العربيّ بنظيره الألمانيّ بطريقة جماليّة؛ الشبابيك بقناطرها العربيّة الجميلة، تعلوها سقوف القرميد الأحمر. كثيرًا ما رأيت مثيلاتها من البيوت في جبال لبنان. بُنيَّ الحيّ على يد جماعة الهيكل الألمانيّة في القرن التاسع عشر، حركة دينيّة إصلاحيّة، هنا في شارع بن غوريون رقم 38، «أبو نوّاس» سابقًا يقع مقهى فتوش. يمتدّ الشارع من سفوح الكرمل، من حدائق البهائيّين نزولًا حتى منطقة الميناء. أنوارٌ وموسيقى صاخبة وأغاني غير مفهومة تنطلق من المقاهي والمطاعم العربيّة المجاورة على جانبي الشارع، أنوارٌ صفراء تنساب من سفوح الكرمل كشلّال ضوءٍ تلقي بأضوائها على مكوّنات هذا الشارع الذي ينبض بالحياة والبهجة بنكهةٍ عربيّة كما لو أنّه يريد أن يؤكّد هويّة المدينة. شجرة الزيتون العتيقة على مدخل المقهى تحسبها وكأنها ترحّب بك، ومن بين أغصانها تتدلّى بضعة فوانيس شرقيّة،

تُرسل أضوائها الخافتة بكلّ الاتجاهات. تأمّلت مبنى المقهى: بيتٌ عربيٌ قديم بواجهته وجدرانه الجانبيّة المزيّنة بكلّ ما يدلّ على هويّته العربيّة. كلّ ما في المكان والجوار يُشبه تلك المقاهي في بيروت ودمشق والقاهرة وبغداد. تصدح وتنبعث من داخله موسيقى رحبانيّة ناعمة، تضفي على المكان جوًّا شاعريًّا، تأخذك بعيدًا مكاناً وزمانًا. لفت نظري عند المدخل قطّة عطشى تحاول جاهدةً أن تشرب من حنفيّة عند المدخل، وقفتُ أتأمّلها من بعيد حتى لا أثير انتباهها، متأمّلاً ذلك الحائط المغطّى نصفه السفليّ «بالقيشاني»، بألوانه الزاهية، مما يعطي إنطباعًا أنّه سبيل يروي عطش المارّة والعابرين، بالإضافة إلى خرير الماء الذي يضفي جوًا بديعًا عند المدخل. صعدنا الدرجات القليلة إلى الطابق الثاني حيث أخذني د. جوني في جولة للتعرّف على أقسام المقهى ونشاطاته الفنيّة والثقافيّة المختلفة؛ رفوفٌ مليئة بالكتب العربيّة والأجنبية، موادّ موسيقيّة وأشغال يدويّة تراثيّة متنوّعة، تضفي على المكان جوًّا ثقافيًّا، للتراث نصيب كبير، أجواءُ كالتي نعرفها في بعض مقاهي بيروت، ولكن بنكهة حيفاويّة مميّزة، يُقام هنا، كما علمت، معارض للكتاب، معارض فنيّة وإحياء حفلات موسيقيّة. كل ما في فتّوش ينبض بحرف الضاد؛ صاحب المقهى وديع شحبرات، النادلة، من روّاده إلى قائمة الطعام المتنوّعة. غرف كثيرة هنا؛ غرفة جدّي، غرفة ستّي وغرفة تحيّة كاريوكا، حالفنا الحظ وكانت قعدتنا في غرفة فيروز التي تمتاز بجمال جدرانها الفيروزيّة اللون، تزيّنها لوحة رائعة للمطربة فيروز، من أعمال الفنّانة الرائعة ارينا كركبي. كانت سهرة مليئة بالمشاعر، تبادلنا فيها الحديث عن هذه الزيارة للوطن، عن إنطباعاتنا وانطباعات الناس، شعرت، وأنا الذي لم يبق على مغادرتي إلّا سويعات قليلة، أنّ المنفى ينكزني ويأمرني بالانصراف مرغمًا. أجد نفسي موزّعاً بين هذه الأمسية الرائعة ولحظات الفجر القادمة. كان حديثي لهم من القلب للقلب، قلت لهم: «أني أودّعكم بعقل إزداد حكمة وثراءً، قلب إزداد حبًّا وشوقًا لكم ولهذا الوطن الساكن فينا، وروحًا لا تُريد أن تغادر، إنّني ذاهبٌ تاركًا روحي معكم وبينكم». تعرّفتُ على أفراحهم ومعاناتهم، التي تشبه كثيرًا أفراحنا ومعاناتنا في المنافي والشتات، إنّهم هنا على أرض الوطن، ملح الأرض وخميرتها وحُرّاس هويّتها وحَفَظَةُ ذاكرتنا الجماعيّة، أمّا نحن فعواطفنا موزّعة بين المنافي والشتات، هذا الوطن الذي بالرغم ممّن يحاول

مصادرة الهواء في رئتيهم والضغط على أعناقهم فإنّهم يضعون اللبنات الأولى لمجتمع يتّسم بالتمسّك بجذوره والمحافظة على هويّته العربيّة الفلسطينيّة ويخطوً خطواته الأولى بالاتجاه الصحيح. متجذّرين بالبقاء هنا، بعيدًا عمّا يحيط بهم من كوارث، سببها أنظمة فاسدة ومستبدّة لم يكن الانسان في يوم من الأيّام من أولويّات إهتمامها ومازالت عقليّة القبيلة هي السائدة في أفكارهمً وممارساتهم.

إنّ خير ما فعل آباؤكم، وفعلتم أنتم، هو إختياركم البقاء هنا. أنتم على أرضكم، رغم التمييز والعنصريّة المقيتة ووجه الإحتلال القبيح، إنّكم تتمتّعون بهامش ضيّق من الحريّة يتيح لكم تطوير أدوات نضالكم وأهمّها العلم والمعرفة. خلال حديثي مع الكثيرين هنا، إنّهم يتألّمون لأوضاع إخوانهم العرب، يرثون لأوضاعهم البائسة نتيجة القهر والاستبداد، ناهيك عن معاملة إخوانهم الفلسطينيّين بعنصريّة لافتة في الكثير من الدول العربيّة وقد أصابتهم خيبة أمل كبيرة وإحباط من اداء «السلطة الفلسطينيّة» ولا يَرَوْن فيها إلّا تكرارًا لباقي الأنظمة العربيّة، رغم التضحيات الكبيرة التي قدّمها شعبنا الذي يستحقّ دولةً ديمقراطيّة نموذجيّة يسودها العدل والحريّة والقانون. يقولون هذا بعيدًا عن تهمة التطبيع الجاهزة دائمًا عند مقاربة هذا الموضوع. ما رأيته من وطنيّة وحبّ الانتماء لهويّتهم يفوق ما رأيته في أماكن اخرى، علم فلسطين كان دائمًا حاضرًا في كلّ الاحتجاجات والمظاهرات والمهرجانات، لن أنسى ما حييت فرقة الإنشاد من شابّات وشباب ترشيحا وهي تنشد «موطني» في افتتاح المهرجان بذكرى يوم ترشيحا.

أثار إعجابي التوجّه إلى العلم في صفوف الشباب، إناثًا وذكورًا، الحفاظ على اللغة العربيّة والمستوى التعليميّ للمدارس العربيّة خلال زيارتي لكلية مار إلياس في اعبلين، تأكّد لي ذلك من خلال لقائي بالطلبة والمدرّسين. لا يظنّ أحدكم من خلال مديحي لهم... إنّني لم أرَ إلّا الخير فيهم، لكنّه يطغى على المشهد هنا، هذا ما يخفّف من وطئة الكثير من السلبيّات الموجودة. خاطبتهم بقولي: «جئت إليكم لأستمدّ منكم القوّة والعزيمة والثبات». عرفت أناسًا طيّبين من كلّ الأجيال، منهم من أدخلني بيت ثقافته وفنّه، منهم من علّمني أن أنظر إلى الأفق البعيد، إلى ذلك الحدّ الفاصل بين الزرقتين وسبر أغوار المستقبل، لقد

بثّت حيويّة الشباب ووعيه روح الأمل والتفاؤل خلال زيارتي لجمعيّة الدفاع عن حقوق القرى المهجّرة، وخفّف من لوعة المنفى ومعاناته والذي لم أختاره بنفسي.

ربط خيط وجداني خيط أفكاري، خيط إمتد من حيفا إلى عكا، الناصرة والطّنطورة، طمرة وأم الفحم وترشيحا، من ميرون في أعالي صفد إلى عرّابة البطّوف، خيطٌ وجدانيّ سيظلّ مشدودًا ولن ينقطع، فالذاكرة تحفظ طعم ما عشته هنا على أرض الوطن. كان للهواء طعمًا، وللماء طعم، وللنظر إلى بحر حيفا من كرملها طعم لا ينسى. مغادرٌ إلى منفى سأفتقد فيه شجرة الكينا وشجرة الزيتون والزنزلخت، سأفتقد زرقة بحر حيفا... وسمائها بنجومها القريبة.

هذه مرحلة جزرٍ... لا بدّ أن يتبعها مرحلة مدٍ أتوق لقدومه، تحمل معها مراكب العائدين من مخيّمات الشتات، القابعين في مخيمات القهر، يتوالدون، يحلمون وينتظرون، يسلّمونَ «مفتاح الدار» من جيل لجيل، مغلّفًا بأوراق الطابو، وحكايا لا تنتهي عن وطن جميل يشتاق لهم؛ عن أطفال يرسمون خارطة فلسطين عن ظهر قلب، يحفظون أسماء مدنهم وقراهم، في أعناق الصبايا سلاسل تتوسّطها خارطة الوطن كاملة... إنّه الأمل الذي لا ينكسر رغم المعاناة المزمنة. لم تكن عودتي الصغيره هذه نتيجة عودة الحقّ لأصحابه، بقدر ما كانت نتيجة سنوات طويلة مشبّعة بصقيع المنفى والاغتراب والعمل الشاقّ، نتج عنه شهادة «حسن سلوك» متمثّلةً بجواز سفر سمح لي بعناق الوطن ولو للحظة.

كانت رحلة رافقني فيها طوال الطريق معاناة وآلام وبطولة إحدى هذه المخيّمات: «مخيّم تلّ الزعتر»، وذلك وفاءً لدماء الشهداء والمشرّدين، وحفاظًا على ذاكرة شعبيّة يحاول الكثيرون من أهل الحل والعقد أن يلقوا بها في كهوف النسيان.

دقّات الساعة تشير إلى أنّ موعد الرحيل قد حان، عليّ ان أودّع الأصدقاء، أن أودّع حيفا والوطن، وشعرت أنّ كلّ ما سيطرأ عليّ بعد هذه العودة الناقصة سيكون له معنىً آخر.

قبل مغادرتي، إقترح عليّ د. جوني أن أحاول كتابة بعض من إنطباعاتي عن هذه العودة القصيرة، وهذا ما كان، لكنّني، وتحت وطأة التأثّر لم أستطع أن أبدأ بذلك إلّا بعد مرور بعض الوقت، وهذا ما قمت به فعلًا، شاكرًا كلّ من جعل من

رحلتي إلى الوطن حقيقة، وإلى كلّ من قابلتهم وتعرّفت عليهم، معبّرًا عن بالغ إعتذاري عن دعوات كثيرة لم أستطع تلبيتها لظروف خارجة عن إرادتي، وكان آخر من ودّعتهم قبل مغادرتي، الأعزّاء د. طلال، حفيد خالتي وزوجته خولة ابنة ميعار المهجّرة. كما دخلت حيفا مع إنبلاج صبح يوم جديد، أغادرها ليلًا لتكتمل الدائرة بوداعٍ مُبلّل، إعتصر ما بقي في المآقي من دموع الفراق.

حيفا... لا أقول وداعًا... بل أقول: لنا لقاء لا محالة!!!

«انتهى»